

أسامة بن منقذ

تأليف : دكتور أحمد كمال زكي

مقدمة

على بعد خمسة عشر ميلا شمال غربى حماة ، وفى أبطح شاسعة الجنبات يتخللها نهر العاصى . . ثمة هضبة سماها المؤرخون العرب « عرف الديك » وقد أقيمت فوقها قلعة أحاطها ذلك النهر من جهات ثلاث تاركا غربيها ليد الانسان تحفره خندقا فى الصخر الفليظ .

وسميت هذه القلعة باسم الاقليم الذى أقيمت فيه ، وآلت الى بنى منقذ الكنانيين بعد أن تداولها كل من الروم البيزنطيين والفرس والأمويين والمراسيين . واذا كانت الكتب الكلاسيكية الغربية تذكرها باسم « سنزار » أو « سيزار » أو « زنزار » أو « سيزاريا » فقد سماها امرؤ القيس ومن بعده عبيد الله ابن قيس الرقيات « شيزر » ودرجت الكتب العربية الى اليوم على استخدام تلك التسمية .

أما الاقليم فكان كورة من عدة قرى وبلد ومدينة ، وأشهر القرى كفر نبوذا وبندر قنين فى الشمال ومعزرف فى الجنوب ، وأما البلد فهو منازل الأهلىن التى تشغل المناطق الغربية والجنوبية وتحد منها الوهاد المفضية الى « بانياس » الساحلية ومرج ممرع اسمه وادى « سروج » ، وأما المدينة فهو جزء من البلد ولكنه

لصق القلعة من الشمال وقد بناه أحد المنقذين - وهو أبو المتوج مقلد بن نصر - ومد قبالته جسرا عظيما على العاصي وسمى كل أولئك « مدينة الجسر » ونظرا لخطورة تلك المدينة فقد عني بنو منقذ باقامة التحصينات المنيعة ازاءها ، وضربوا الأسوار العالية حولها .

وللقلعة أبواب ثلاثة أهمها ما يفتح نحو الجسر ، وأكثرها استعمالا الباب الذى يطل على البلد من الجهة الغربية حيث كان المنقذون يخرجون منه الى الأهالى ويدخل هؤلاء عليهم ، متبادلين المنافع والرأى ، ولا تزال بقايا هذه القلعة قائمة الى اليوم ويطلق عليها « سيجر » وتشهد أحجارها الكبيرة وجدرانها السميكة على أن وقوفها فى وجه الفازين لم يكن معجزة ، وما كان يستطيع أحد أن يتسلق هذه الجدران وهى تذهب صعودا الى السماء فى شكل هرمى مبتور الرأس .

والواقع أن تاريخ شيزر - اقليما وقلعة - قد يكون من وجهة النظر العامة تاريخا لسوريا كلها ، غير أننا لا نلبث أن نشعر بأنه كثيرا ما يتفرد بأشياء . فالاسكندر المقدونى يترك شيزر حتى يبنى أقامية بينها وبين كفر طاب فى الشمال ثم يتحول اليها ، وسلوقس نيكاتور يخصها بعناية ويسمىها « لارسا » بعد أن ينقل اليها قوما من لارسا التى فى « تساليا » . والصليبيون يعجزون أمامها - وقد تمكن فيها حكام عرب خالصون - مع أنهم قهروا بلادا تكبرها قوة وعند نفس ، وعندما يحاصرها امبراطور بيزنطة ويقذفها بالمجانيق يتدخل عماد الدين زنكى أنابك الموصل لانقاذها .

فليس عجيبا أن تظل شيزر العربية محتفظة باستقلالها - من حيث هى امارة عربية - وسط امارات سلجوقية كانت رياح الأحداث تطيح بحكامها واحدا اثر واحد ، ولم يضع هذا الاستقلال الا عقب زلزال سنة ٥٥٢ / ١١٥٧ لأنه قضى على آل منقذ قضاء مبرما !

وكثيرون هؤلاء الأمراء الذين حكموا شيزر ، أولهم في رأيي
سديد الملك - السياسي الداهية والشاعر الذي قصده الشعراء
المشهورون كالحفاجي الدمشقي - لأنه خلص شيزر من نفوذ
بيزنطة سنة ١٠٨١/٤٧٤ وكان سلفه قد ظفر بها من المرداسيين .
وأشهرهم مجد الدين أبو سلامة مرشد لأنه فضلا عن كونه
أبا أسامة صاحب هذه السيرة ورت الامارة من أخيه عز الدولة
أبي المرفف نصر سنة ١٠٩٨/٤٩١ وورثها في حياته أخاه عز الدين
أبا العساكر سلطانا مؤثرا عليها القنص والرمية نهارا وتلاوة
القرآن ونسخه ليلا ، وأثر عنه أنه قال : « والله لأولييتها ولأخرجن
من الدنيا كما دخلتها » .

ولا ندرى متى تنازل مرشد لأخيه سلطان ، فإن صاحب هذه
السيرة الذي ولد سنة ١٠٩٥/٤٨٨ ودون في كتابه « الاعتبار »
أبرز حوادث سنه يرسم طفولته أو صباه وعمه سلطان أمير
يحكم ، بينما كان أبوه موزعا بين متصيدي شيزر القبل والغربي .
وكانت الأحوال السياسية إذ ذاك تنذر بالخطر ، فقد قامت حرب
عانية حول السلطنة السلجوقية - بعد وفاة ملكشاه - بين أخيه
تتش وابنه باركيارق ، واذ يهزم تتش يقتسم ولداه سوريا
فياخذ فخر الملوك رضوان حلب وياخذ شمس الملوك دقاق دمشق
وينقسم صفار الأمراء بينهما شيعا ، فتصبح سوريا بذلك مطعما
سهل التناول للغرب ، وكان مؤتمر كلير مونت الذي دعا
إلى عقده بابا روما أوربان الثاني إذ ذاك قد قرر ابتلاع الشرق
المتنازع أهله ، ولم يكن يخيف أعضاء المؤتمر شيء ، حتى ولا بأس
الغواطم في مصر .

وكان من الطبيعي أن يرسم بنو منقذ لأنفسهم السياسة التي
تمكنهم من الاحتفاظ بدولتهم الصغيرة ، وباصطناع الممالة حينما
والتخويف حينما آخر برزوا على صعيد الأحداث بوجهين
متناقضين . فهم طورا مع السلاجقة وأمرائهم ضد الأفرنج الذين

أسسوا أربع ممالك لاتينية فى الرها وأنطاكية وطرابلس وأورشليم ،
وهم طورا آخر فى موقف حياذى مالم تكن هناك الى الحرب
حاجة .

كل هذا وأبو المظفر مؤيد الدولة أسامة بن مرشد يشب ويتعلم
ويحارب ويصارع السباع - فقد كان ثمة آجام وغابات بخاصة
قرب أفامية وطبرية - ولا يضمن عليه أبوه الفارس العملاق وعمه
البطين الأريب بما يجعله يوما مناط أمل شيزر .

وأما متى شارك أسامة فى أحداث هذا العصر فلا أحد يدرى
على وجه التحقيق ، برغم أنه هو نفسه يصرح فى مذكراته بأن قتالا
نشب عام ١١٠٣/٥٠٣ بين شيزر وأنطاكية ، وكان أول قتال
حضره حيث رأى تانكرد الذى خلف عمه بوهيموند بن روبرت
جسكارد الصقلى سنة ١١٠١/٤٩٤ ودأب منذ ذلك التاريخ على
الاحتكاك بسلطان . غير أن طبيعة تربيته وقربه من مركز
الأحداث واشتراك أبيه وعمه فى عمليات الشد والجذب التى
صاحبت زحف الصليبيين الى مدينة القدس حتى تركع لجودفرى
- وهو أحد قادة اللوثرنجيين القادمين من الرين - عاما ولأخيه
بلدوين الأول من بعده ، كل أولئك مع ما يتطلبه موقفنا الأخوين
رضوان ودفاق لا شك يهين لأسامة مجالا كبيرا للعمل .

والحقيقة أننا نراه يحكى فى الاعتبار عن وقائع يسبق تاريخها
تلك الواقعة التى شهدها ، مثال ذلك اغارة تانكرد سنة
١١٠٩/٥٠٢ على بلده واستياقه دواب كثيرة بعد أن قتل وسبى ،
وكان قد سبق فضم اليه كفر طاب وأفامية بعد أن اغتال
الحشاشون - وهم اسماعيلية باطنية - صاحبها خلف بن ملاعب
سنة ١١٠٥/٤٩٩ ، كما يحكى من ناحية أخرى عن سقمان بن أرتق
أمير سروج الذى كان يناصر صاحب حلب ، وعن شهاب الدين

محمود بن قراجا أمير حماة الذي كان يساند صاحب دمشق .
وفي لباب الالباب - وهو أحد كتبه المشهورة - يحكى حكاية عن
ابن المنيرة استأذنه في واقعة استيلاء الحشاشية الاسماعيليين على
حصن شيزر ، وكان ذلك سنة ٥٠٢/١١٠٩ لاكما زعم هو في سنة
سبع وعشرين وخمسائة ، والمصروف أن استأذنه المذكور مات
سنة ٥٠٣ . وأن الحشاشية لم تستول على الحصن في سنة ٥٢٧ .
وفي حياته اليومية نرى تفاعلا لا يجنح به الى السكنينة والدعة
قط ، وكان البيت الذي يسكنه مع أبيه - وهو جناح يطل على
المدينة من القلعة - يربطه بالخارج ويقربه من السابلة ، فكان
طلعة أشربت نفسه بتقصي الاخبار حتى وهى تكون قيلا وقالا ،
واعتماد أن يجد في البحث وراء ما يرضى فضوله ، فارتبطت حياته
بحياة الاقليم كله . بل ربما صنع بعض هذه الحياة وهو بعد غلام ،
وكان أبواه يتركانه الى طبيعته فيزهق روحا ويحيى روحا بقدر
ما تسمح به طاقته .

وكم كان أوفق بشيزر العربية السلجوقية التي اتصلت
بالصليبية أن يظهر فتاها أسامة مزيجا من كل ذلك فيلفت اليه
الأنظار منذ شب عن طوقه ، ثم يغدو على الأيام مثلا أعلى للداوية
والاستبشارية فرسان الافرنج المعروفين . لكن ذلك لم يكن بمانعه
من أن يضرب على يد الصليبيين بعنف ما وجد الأمر يقتضى ذلك ،
لأنه جندي من جنود المسلمين قبل كل شيء ، كما واجه السلجوقية
عندما أحس أنها تريد حرمان بلده من استقلالها .

انه لم يكن مخادعا ولا مخائلا ، ولكنه كان سياسيا اضطرته
ظروف العصر والبيئة الى أن يصنع ذلك الأسلوب المرن !

وفيما يرويه عن نفسه نحس أنه كان مقداما رابط الجاش ،
قادرا على أن يواجه كل موقف دون أن يريق ماء وجهه . ويوم
رأى أنه لا بد من ترك بلده ليعيش أبيا تركها ، وفي دمشق أو في

القاهرة رسم وخطط وربما دبر وتآمر ، الا أنه لم يفقد خصلته الأولى وهى الاباء . وحتى وهو يجب وينزف الدموع رفض أن يسلم قياده لصاحبه ، والفارس على أى حال قد يبكى كما يبكى الرجال .

ولكنه قبل ذلك كله أو الى جانب ذلك كله كان كاتباً شاعراً ، ويتضمن تراثه الباقي لنا من نحو ثمانية عشر كتاباً . ستة كتب وديوان شعر ومذكراته التى أشرنا اليها ، وكانت قد ظلت مجهولة لدينا حتى طبعها سنة ١٨٨٦ لأول مرة المستشرق الفرنسى هارتويج ديرنبورج عن نسخة خطية محفوظة بمكتبة الاسكوريال وعليها اجازة من مرهف بن أسامة .

واذ يستوى بيان أسامة فى نشره وشعره - وقد طبعت عدة كتب له - ويتعثر فى المذكرات فأتانا نرجح أن ناسخ المخطوطة لم يكن على خبرة بالاسلوب الأدبى ، على الرغم من أنه كان ينقل أو يملأ عليه من نسخة كتبت بعد وفاة أسامة بست وعشرين سنة ، فكثر الأخطاء الى حد أعجز ديرنبورج ، ولكن فيليب حتى قوم النص تقويماً جيداً ونشره لأول مرة سنة ١٩٣٠ فى برنستون .

والأمر على أى حال ينبغى ألا يصرفنا الى أثر الرجل ، فقد كان من غير شك عظيماً ، ، الا أن عظمته لا تكمن فى بيانه وتدفعه يقدر ما تكمن بنيانه وتحركه . وكان ما يصعب على الشعراء والقاصين أن يتصوروه يأتيه طوعاً لأنه نابع من أعماقه ، ويفيض بلا تكلف ولا زخرفة ، حتى أننا لنعجب كيف لم يكن يجد مشقة فى استهواننا والتأثير علينا .

فهل ما يدهش أن ينال هذا البطل القناص والسياسى الأديب كل ما ظفر به من شهرة ؟ اننا قد نفضل عليه المتنبى أو المعرى ، لكن هل كان أحد الاثنين يجرؤ على أن يعيش مثله حياته كما يريد ؟

ومن في تاريخنا الطويل المجيد استطاع كما استطاع هو أن يظل
مدى حياته مدعاة فخر ومعقد آمال ، حتى اذا مات رفض شأنه
قبل محبيه أن ينقصوا من قدره ؟

ان أسامة بن منقذ ظاهرة نادرة ، واليوم ونحن نخوض
معركتنا - في أرضنا العربية - في حاجة الى فهم هذه الظاهرة ،
والى تحديد معالمها ومعرفة الخطوات التي قطعتها لتأثيرها .
فالجال هو الحال ، والعدو لا يختلف عن العدو ، والدسائس
تحاك ويؤلب علينا فيها كما حيكت وألب بالأمس ، وليس تحت
الشمس جديد .

ومن أجل ذلك وللغاية التي استهدفها أسامة ونادى بها
وحارب لها حتى نكب ، نكتب هذه الصفحات عنه ، راجين أن تكون
وفاء بحق بطل تستطيع أعماله ان تخلق فينا ملايين الأبطال .

الباب الأول
في شيزر

(١)

الزحف الصليبي

يقول التاريخ ان جيوش أوروبا التي اصطلح على تسميتها بالحملة الصليبية الأولى أعلنت بعد تأسيس امارة أنطاكية سنة ١٠٩٩/يناير سنة ١٠٩٩ أنها لا تقبى شرا بولايات الشام الاسلامية ما دام أمراؤها لا يعترضون طريق النصارى الى اورشليم (١) وصحب هذا الاعلان خروج ريموند دى سنجيل - صاحب تولوز وأحد قادة الحملة بجنود السيد الرب زحفا على طول نهر العاصى ، وقد منى بخيبة كبيرة بعد أن نصب يوهيموند نفسه اميرا على أنطاكية دونه .

غير أنه لم يكد يقترب من معرة النعمان حتى أضرم فيها النار ، فأعلن الولاء له سيف الدولة خلف بن ملاعب صاحب كفر طاب وأقامية ذات القلعة المنيعه التي تعرف بقلعة المضيق (٢) .

W. D. Stevenson : The Crusaders in the East, p, 218, (١)

Cambridge 1905.

وابن الأثير في الكامل ٨ : ١٨٧ ، ٢٠٤ ط . التجارية بمصر ، وتاريخ أبي الفداء ٢ : ٢١٠ ط . الحسينية بمصر ، والمعروف أنه قبل ذلك بعام أنشئت في « الرها » داخل مناطق الأرمن أول امارة لاتينية وقد حكمها بلدوين دى بويون الأول الذى نصب فيما بعد ملكا على القدس .

(٢) ستردد الأسماء : معرة النعمان ، وكفر طاب ، وأقامية كثيرا . فاما معرة النعمان فهي بلدة أبي العلاء المعروفة ، وتقع الى الجنوب الغربى من حلب . واما كفر طاب فبلدة أخرى في بركة معطشة بين المعرة وحلب ، وكان بها حصن =

ولم يجد أبو العساكر سلطان - الذى خلف أخاه مرشدا
هنا أشهر قليلة - بدا من أن يبعث برسله اليه بالهدايا ويبدى
استعداد شيزر لأن تسهل مرور قواته « المسالمة » الى
الجنوب ، وفى الوقت نفسه أرسل أحد اخواته الى فخر الملوك
رضوان فى جلب يستمدده اذا ركب ريموند رأسه ، ويرجوه أن
يمنع عنه بنى كلاب الذين يخرجون من عنده لضرب شيزر .

كانت الأحوال عصبية ، ولكن بنى منقذ كانوا قد عولوا على
الخروج من الأزمة بأى ثمن . ودرءا للخطر أغلقوا باب الجسر
وفتحوا الباب الغربى الى الأهلى يستنهضون همهم ، ووزعوا
عيونهم فى الأرباض ، بينما أخذ الفرسان يضربون هنا وهناك فى
دوريات متصلة . ولم يبق أحد فى قاعة المرقب العالية سوى
سلطان نفسه ، وقد أخذ ابن أخيه أسامة بين يديه يداعبه :

— لقد اصطدت اليوم دراجا كبيرا .

— وحدك يا أسامة ؟

— كان معى أبى ، ولكنه تركنى على الماء وركض مع الزغارية .

— ما خفت ؟

— كان معى هذا الخنجر !

واستضحك سلطان ثم قبله ، فان هذا الطفل الذى يصيد
الدراج ويتركه أبوه وحده ومعه الخنجر لم يكن قد وصل الى
الخامسة من عمره . وهى سن صغيرة عادة ، الا أنها كانت لدى

= إسفونا الذى ملكه سديد الملك ، وزرعت يوما القطن ، واما أقامية - واصله
أباميا اسم أميرة فارسية - فالى الشمال من شيزر وجنوبى كفر طاب ،
وكانت إحدى أهم مدن قام عليها ملك السلوقيين فى سوريا السعيدة
— سوريا سالوتاريس - وكانت تضم الرستن وحماة ومريمين ورفنية وبحيرة
الغاب ، ومرفت بأجامها التى كثر فيها السباع .

أسامة كافية لتجعله يفتح على ذنياه التي لعلها بدأت بمعركة من المعارك التي يخوضها السلاجقة ، ولعله لا ينسى قط جزع أبيه وأعمامه الذين كانوا مجتمعين في القلعة بياغى سيان أمير أنطاكية ورضوان لتدبير هجوم على جناح الدولة صاحب حمص عندما بلغهم نبأ سقوط الرها في يد بلدوين دى بويون الأول سنة ١٠٩٨ فانفض الاجتماع وسقط عمه عز الدولة أبو المرفه ميتا . وأما كارثة أنطاكية فقد سمع بها وهو مع جدته ، وراها تنتفض عندما بلغها نبأ مصرع ياغى سيان في المعركة ثم تهتف :

— أين مرشد .. ألا يزال يطرد اليحامير في أرض حصن الجسر ؟

فيقول لها غلامه محمد العجمي :

— بل يستعد في دار الحرب يا مولاتي الخاتون !

ولو أننا ألقينا نظرة على حياته اليومية في هذه المرحلة ، لوجدنا فيه الحركة الدائبة والعزيمة التي لا يجد الوهن اليها سبيلا .. هو لا يأكل كما يأكل أترابه من أقاربه — وهم يملئون بيوت القلعة — وإنما يخطف الطعام خطفا ، ويهرب من مواليه ليختفى عن أعينهم اختفاء تاما .. وفي أكثر الأحيان يحضر اجتماعات الأسرة ، ويستمع الى المتحدثين وينفعل اذا انفعلوا ، وقد يصاحب أباه الى المتصيد الغربي في البلد حيث يلزمه ويأخذ عنه أسلوبه في معاملة كلابه السلوقية والزغارية وارسالها وراء الغزلان والأرانب .

وما كان يروع الخدم والموالي الا أن يروه يقفز على الأبواب ويتسلق الأسوار ويتضاك في عنف ، ولم يكونوا يتصورون منظر الفكرة التي تطوف بخاطره ، ولكنهم كانوا يجمعون على أنه أخطر أبناء القلعة من الأمراء .. فاذا جن الليل ، رفض أن ينقلب الى فراشه قبل أن يرى عمه في داره ، ثم يلتمس أباه فيقف أمامه

بتأمله وهو يكتب في كتاب الله آيات على الطاق الصورى ، ويقول
لامه الخاتون بعد ذلك ١

— ما ينتهى أبى من الكتابة ؟

تلك الحياة لم تكن تتغير ، غير أنها في هذا اليوم من يناير
سنة ١٠٩٩ خرجت نهائيا عن الطريق المرسوم .. فأما المزارعون
فقد احتموا بدورهم وخصاصهم وقد أعدوا النشاب والقنطاريات
— نوع من الرماح القصيرة — ورجع المولعون بالصيد من حيث
أتوا وهم يقولون ان جنود الأفرنج يصلون شيزر بعد ساعة على
أكثر تقدير وبدأت المقاتلة تأخذ أماكنها على الأسوار وخلف الكوى.
وغير بعيد من جسر أبى المتوج وفوق حجر ضخيم من حجارة
السور الذى يرتفع فوقه الحصن من قلعة شيزر جلس في شمس
الظهيرة كل من ابن الأحمر الكنانى ونمير العلاروزى مستسلمين
للدفع ، وقد وضعوا جانبا رمحيهما وسرحا جواديهما غير بعيد
منهما فى السهل العشيب ، ولقد ظلّا ساكنين برهة فلما تكلم أحدهما
نشط الآخر له .

وكان من الطبيعى أن يعرضا كلامهما — للآزمة التى
تجتاح البلاد ، ولكن شيئا آخر شغلهم بعض الوقت ، وذلك أن
ابن الأحمر الكنانى كان لا يزال واقعا فى أسر حادثة وقعت له فى
ظاهر كفر نبوذا . فقد هاجه أسد وهو على فرسه ، فوقع بين
برائنه وبرك عليه لاقما وجهه وجبهته .. ولما كان الأسد ممثليا
فقد اكتفى بلعق دمائه ، حتى تمكن من الإفلات منه الى شجرة
تسلقها ليجد نفسه فريسة سهلة للذر الذى تجمع على جروحه .
ومع ذلك فقد كتبت له السلامة بعد انفلات الأسد على صوت قافلة
تعبر الطريق ، ولو كان بقى لسلم ابن الأحمر نفسه طائعا (١) .

(١) وردت هذه الرواية فى « الاعتبار » وثمة ما هو اعجب ، فاذا بدا
للقارئ فيه ما لا يقبله منطقته فالأمر فى ذلك للمؤلف ، فانى لا أنحرى
الا ما يقول ، ولن أغزو الا مفزاه على طول صفحات هذا المؤلف .

واذ يعلن الاثنان اتفاقهما على أن النجاة كانت لطفاً من الله فقد تمنيا أن يشمل هذا اللطف شيزر في محتتها - وكم مرت بها المحن - فتسلم لأهلها ويسلم أهلها ، ويتمكن أميرها أبو العساكر سلطان الذي ولد سنة أربع وستين وأربعمائة من أن يتفرغ لنهاية بنى كلاب وفدائيى الباطنية الحشاشين .

وما كان لهما أن يتطلعا الى أبعد من ذلك ، فهما لم يكونا الا من فرسان القلعة ومثلهما كثير ، غير أن البحث عن الحليف - فى مثل هذه الظروف - من البديهيات التى لا يختلف عليها اثنان ، ولهذا اجمعا على أن حماة التى كانت شيزر تابعة لها حتى نهاية حكم المرديسين - أى قبل تفرد بنى منقذ بالحكم فى كورتهم - هى النصير الطبيعى ، بشرط أن يلقى غرض الحائط بالسعايات التى يتجرد لها سقمان بن أرتق أمير سروج التركمانى .. وعلى سلطان مهما يكن الأمر أن يخطو تلك الخطوة ، لأنها فرصة اذا ضيعها ترفعا عن الحيلة ومكتفيا بنفسه فليس شك فى أن مقاتله ستكون بادية لمن يسدد اليه سهمه .

ثم اخلدا للصلمت وكل منهما يعترف فيما بينه وبين نفسه بأن عدوهما القادم من بعيد ليس من قبيل هؤلاء الذين اعتادوا أن يحارباهم ، والدليل على ذلك استيلاؤه السريع على أكثر بلاد الأرض ومدن السلاجقة فى آسيا الصغرى ، فكيف تكون المعركة القادمة ؟

لا احد يدري ، ولكن أقبل عليهما فى تلك اللحظة فارس آخر من المحاربة يدعى جمعة النميرى وصرخ :

- اجتاز الآن عسكر الافرنج نبوذا !

وأسرع ثلاثتهم الى الباب الغربى ، وكانت قاعة المرقب اذ ذاك قد احتشدت بالأمراء ورؤساء العسكر ، بينما جلس كاتب الديوان - وهو يهودى يشتغل بالحجامة اسمه اسحاق - على استعداد

بأوراقه وقفص الزاجل .. ولا يظن أحد أن أسامة كان جاهلا
ما يجري ، والا لما اقتحم على المجتمعين مجلسهم ليقول في حدة :
- اتركوهم يأتوا لنقتلهم .

ثم خرج الى أثرابه وكان فيهم محمود بن جمعة النميري الذي
يؤثره باهتمامه وهمس له :

- تعال الى سطح المرقب وهات النشاب معك !

وقبل ان يهيا للصفرين أن يستويا على أعلى مكان في القلعة
كان جنود « السيد الرب » قد حلوا في شيزر وفيهم الراكب
والراجل وبعضهم مسيف وبعضهم راح ، وكانت أصواتهم التي
ترتل تدوى في الأرجاء ويردد لها الصدى هديرا لا ينقطع .

استعد حراس الجسر تماما ، ومن فوق رءوسهم برزت السهام
من كوى الحصن ، بينما أخذت المقاتلة المسيفة أماكنها في القلعة
وفى المدينة نفسها حيث كان الفرسان لا يكفون عن الحركة قط ..
ولكن الافرنج وقفوا على المشارف ، ولم يبد منهم ما يدل على أنهم
يريدون قتالا ، وكان أن خرج سلطان بنفسه اليهم على ظهر
جواد كريم ، ثم عاد ...

وانتهى اليوم على هذا النحو وأوى أسامة الى فراشه وهو
يحلم بالمركة التي أكد وقوعها في صباح الغد لصديقه محمود ،
فلما أشرقت الشمس روع الشيزريون بفساطيط الافرنج منصوبة
قبالة الجسر على الضفة الشرقية من العاصي ، وكل الدلائل تشير
الى اقامة طويلة . وهنا كان لابد أن يتخذ بنو منقذ قرارهم الأخير
بخاصة بعد أن بعث ريموند اليهم يطلب مئونة ، فردوا الرسول
ردا كريما ، وان حملوه استيائهم لقائدهم . ثم أنفذ سلطان اليهم
فارسيين يديان استعدادهما ليكونا دليلين الى حيث يجدون
الغنيمة الطيبة في سروج ، وبعد أخذ ورد استمر أربعة أيام

- مات خلالهما أمل الصغير فى الحرب مرات وبعثت مرات - رحل
الافرنج فى اليوم الخامس حيث سلبوا سقمان بن ارتق أغلى ماكان
فى سروج من جياذ وغنم وغلل وذهب .

وبقدر ما هنا سلطان نفسه لنجاحه فى أن يملأ ارادته على
الافرنج فلم يعبروا جسر أبى المتوج ، وبقدر ما سعد بذلك الشيزريون
ومن هرب اليهم من أسر معرة النعمان التى احترقت ، فان أسامة ظل
وحده المغيظ الناقم .. وقد سمعته أمه يلعن الجبناء ، فلم تسأله
من يقصد ، وان كانت تحس أنه يقصد الجميع .

(٢)

ممارسة الحياة

الأيام تمر بالصغير ، فيسمع من انباء القتال ما يزعجه ،
ويجد من مؤدبه عبد الله محمد بن يوسف - وكان يعرف بابن
المنيرة - ما ينوء به ويسوء .. واذا كان بطبيعته متوقد الذكاء
فان ابن المنيرة يدهش لماذا لا يعلق بذهنه كل ما يلقيه اياه من
آيات القرآن ومقتطفات الشعر ، وكان اعتصامه بالصمت أحيانا
يحملة على الظن أن بنفسه جفوة ، في حين يرى أبوه منه وهو
يمارس معه هوايته في القنص والركض كل ما يبشر بطلعة . على
أن عمه لم يقتصد في تأنيبه ، اذ كان يداعب الأمل أن يتخرج في
العلم أساسا ، وتكون الفروسية التي شهر بها بنو منقذ مما لا يغلب
عليه كآبئه .

لكن كان من الطبيعي جدا أن يستثار الابن بأعمال الأب ،
وكانت تبدو اذ ذاك خارقة .. فهو مع ثقل جسمه يركض نهاره
كله ، ويطارد الوحوش دون أن يكل ويخرج في سنة ١١٠٤ الى
كفر طاب لمعاونة صاحب أفامية خلف بن ملاعب وكاد يهلك عندما
قطع أحد شرايينه ونزف ، وفي سنة ١١٠٨ يحمل عبء الحرب
التي شنها على شيزر تانكرد الصقلي ، وكان قد ورث عمه
بوهيمند الأول على أنطاكية من سنة ١١٠١ وهكذا ...

وكان الأب نفسه يعطيه فرصته ، فقبل أن يصل الى العاشرة
راى يوما حية عظيمة قد أخرجت رأسها على افريز رواق القناطر

التي في داره ، فلم يتردد قط وصعد اليها بسلم أتى به دون أن يعترض أبوه أو ينهاه .. وبسكين صغير أخرجه من وسطه - وبينه وبين الحية دون الذراع - حز عنقها وهي تنعقد على يده حتى قطع رأسها وألقاها الى الأرض وهبط .

وحول هذه السن نفسها كان واقفا على باب الدار في القلعة ، وإذا محمد العجمي غلام أبيه يلطم خادما له فيلوذ به ويتعلق بثوبه . ولكن الغلام يتحرش به ، فيلطمه هو بقضيب كان في يده ، وإذا ذلك يهاجمه الغلام فلا يجد بدا من أن يخرج سكينه ويدهكه في صدره حتى إذا راح يتنفس طلع منه الدم مثل فقاعات الماء ، ثم قضى في آخر النهار !

هكذا بدا الابن وأبوه ، لكن العم لا يرضيه ذلك ، ويسعى من أجل أن يكرس أسامة نفسه للفقه والدين ويخصص له أبا الحسن علي بن سالم السنبسي ليعلمه الحديث ، فيتعاونان على تعذيبه ، ويقسرانه بين الحين والحين على أن يبدأ مراجعة ما لقن ابتداء من بدء الخليقة . ولا بد بطبيعة الحال من الوقوف عند كنانة ومن برز من رجالاتها وزعمائها - وهنا يعنى ابن المنيرة بالأدباء ويركز السنبسي على العلماء - إلا أنهما لم يكونا يجدان ضرورة الى أن يتحدث عن أبيه مرشد ولا جده مقلد بن نصر بن منقذ ، لأن تاريخهما قريب ومآثرهما محفوظة .

وفي عام ١١٠٩ تكون الثالثة الأثافي ، إذ يحدث أن يدمر الفرنج دار العلم في طرابلس ويطرد متوليها أبو عبد الله الطليطلي - سيبويه عصره في النحو - فيدعوه سلطان الى القلعة ، ويجلس اليه أسامة ثم يشاء الله أن يتكرر جلوسه عشر سنوات كاملة .

إلا أنه كان في هذه المرحلة - وقد بلغ الرابعة عشرة - قليل الشكوى ، فقد كبر وأدرك أنه بغير العلم لا تكون حياة . وأقبل

على حفظ الشعر (١) - ديوان العرب - وفنون اللغة ومسائل النحو ومشكلات الفقه بما اعتده أساتذته مدعاة للفخر ومعقدا للأمل . فلا عجب إذا هم نزلوا على إرادته - وان فاضت بالأسى صدورهم - فتركوه أحيانا إلى القنص الذي أصبح نزهته ، على أن يعود اليهم متجدد النشاط .

وقد كانت أمه من ناحية أخرى تمده بنصحها ، ويوم أصر على أن يصحب حسنونا الكردي - وهو من قرسان شيزر - إلى أنطاكية بعد وقعة سنة ١١٠٨ وقيام الصلح بين سلطان ، وتانكرد ، سألته :

- أتدرى لماذا نبعث بحسنون إلى دنكري ؟

فأجاب :

- ينفذ إليه الفرس الذي طلبه منا .

قالت :

- ومن يكون حسنون يا ولدي ؟

فقال :

- مولى لنا ..

وهنا قالت بحزم :

- إذن فقد اخترنا مولى لعمل الموالي فأيش أنت ؟

وفي سنة ١١١٠/٥٠٢ عاد تانكرد إلى شيزر - بعد أن نجح

(١) نقل الحافظ الذهبي في (تاريخ الاسلام) عن أبي سعد السمعاني قال « قال لي أبو المظفر - يعني أسامة - أحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من شعر الجاهلية » .

الاسماعيلية (١) في اقتحام حصن المدينة - محاولا الاستيلاء عليها ، وكان أبوه وعمه قد خرجا الى الصيد بالبزاه نحو تل ملح - وهناك طير ماء كثير - فما شعرا الا والأمير الصقلي يغير على البلد في الوقت الذي كان يزحف فيه أمير طرابلس الى السور الغربى . وقد تولى سلطان مواجهة الطرابلسيين بعساكره فكسرهم ، في حين سار مرشد - وكان معه أسامة - الى البلد حتى اذا باتا قريبين من الفرنج قال الأب :

- امض أنت فادخل !

واتجه على رغم علة كان يشكو منها الى أعدائه ، وأما هو فان أمه عندما رآته قالت له :

- ما كان ينبغي أن تترك أباك وهو مريض !

فعاد اليه فاذا خيل شيزر قد لقيت أوائل المقاتلة الأنطاكيين ، وكان قد خرج من شيزر رجاله كثيرون ، فحمل عليهم الفرنج دون أن يزعموهم حتى قال تانكرد لمحاربيه :

- أنتم فرسانى وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة

(١) مما يجب ان يذكر أنه في الوقت الذي كان فيه الصليبيون يدخلون سوريا من الشمال الغربى كان الحشاشية يدخلونها من جهة الشمال الشرقى ، لكن اول معقل اتخلوه لهم كان مدينة بانياس سنة ١١٤٠/٥٣٥ ، وساندهم رضوان السلجوقى قبل أن يموت سنة ١١١٣ ، وراحوا يستولون على المناطق الجبلية في شمالى سوريا وجعلوا « قدموس » عاصمة لهم وفيها يحكم شيخ الجبل من قلعة مصيف ، ويشدد النكير على شيزر طمعا فيها - يراجع تاريخ أبى الفداء ٣ : ٦٠ ، ٦١ والكتاب الذى ترجمه ابرى ستيوارت بعنوان : Burchard of Mount Zion صفحة ١٠٥ ط . لندن سنة ١٨٩٦ .

مسلم وهؤلاء سرجند (١) ما تقدرون أن تقلعوه من موضعهم .

قالوا :

— نخاف على خيولنا والا دسناهم وطعنناهم .

قال :

— الخيل لى .. من قتل حصانه أخلفته عليه .

وعلى الرغم من أن سبعين حصانا قتل فى هذه المعركة فقد وجد بنو منقذ أن لا مفر من انتهاء المعركة ، ورضى تانكرد — فى مسيل سلم مؤقت — أن يتقاضى جزية عشرة آلاف دينار تحمل اليه كل سنة . وقد كان جائزا أن تتغير النتيجة ، الا أن ما دفع بنى منقذ الى قبول هذا الوضع هو تغفل فرسان الصليبيين فى البلد حيث عاثوا فسادا .. ورفض أسامة أن يقبل ما قبله عمه وأبوه فالج لأمه تلميحات تشف عن الحق ، وعندما أخبرها أن حسنونا الكردي أسر فى المعركة وأن تانكرد يريد فيه بعد أن فقا عينه اليمنى ألف دينار وفرس أبيه قالت :

— من حق القوى أن يملئ شروطه !

وانقلب الى مؤدبه كسيرا ، فرفض هذا أن يتجاوب مع أحزانه وأخذ يحدثه عن صعاليك هذيل ، فقاطعه قائلا :

— ألم يكن فى هؤلاء فرسان ؟

(١) سرجند : رجالة ، وهى من الكلمات الأفرنجية التى شاع استعمالها فى العربية طوال عصر أسامة ومثلها البسكند أى Viscount والبرجاسى أى Bourgeois . ولم يكن أسامة يتووع عن استعمالها فى كتاباته ، كما يلاحظ أن استخدام العبارات الدارجة ومنها « أيش » التى مرت بنا بمعنى « أى شيء »

اجاب :

- بلى ..

قال :

- فلم لا يعن لك الا الفقر والنهب والفرار في الجبل ؟

وصمت قليلا كأنه يفكر ، ثم استطرد :

- يا أستاذ .. والله لو ركبت أنت حصانا ولبست زردا

وخوذة وتقلدت سيفا وحملت رمحا ووقفت عند مشهد العاصي

ما كان يجوزك أحد من الافرنج .

قال الشيخ :

- بلى والله كلهم !

فقال أسامة :

- كانوا يهابونك ولا يعرفونك ..

قال الشيخ :

- سبحان الله ، فأنما أعرف نفسي ، لكن ما يقاتل عاقل ..

فتساءل أسامة :

- تحكم على عمى وأبى وحسنون وكامل المشطوب وبدى

القشيري ورافع بن سوتكين والرئيس جواد والقائد أسد وحمدات

الصديق وهم فرسان الحرب أنهم مجانيين ؟

فأجاب الشيخ قائلا :

- لم أقصد هذا ..

فسأله :

— اذن ماذا قصدت ؟

فقال :

— انما قصدى أن العقل لا يحضر وقت القتال ، ولو حضر
ما كان الانسان يلقي بوجهه السيوف وبصدره الرماح والسهام ..
ما هذا شيء يقضى به العقل !

وفى غضون ذلك أو قبل أن يكمل العام دورته كان صوت
السلطان غياث الدنيا والدين محمد بن ملكشاه قد وصل اليه
يحرص جميع الأمراء على « الحمامة عن بيضة الاسلام والمسلمين »
فاستمد من خزلان أهله عزما ، ولما كان قد عالج الشعر فقد
انطلق يقول :

الم تخبر بما نحمل القوافي باتنا لا نخاف ولا نلين
سنجعل جزية المفلوب دينا وشر الدين ما تجرى المنون
واذ يتابع على الأيام ما نجم عن تلك الدعوة يفعم قلبه بالامل ،
فقد لباهما الأمير اسباسلار شرف الدين مودود بن التونتكين
صاحب الموصل والأمير سقمان بن ارتق صاحب ميافارقين والأمير
نجم الدين ايلغازى بن ارتق صاحب ماردين ، وتوجهوا الى الرها
فجمع جوسلين صاحبها من الفرنج كلا من بلدوين الأول ملك
أورشليم وتانكرد صاحب أنطاكية فى جيش لمواجهة تحدى ملكشاه .

ولقد كان الحلف الاسلامى موفقا فى فتحه الباب لمن يريد
أن يجاهد ، وبعث رؤساؤه الى ظهر الدين طفتكين — أتابك دمشق
الجديد — فى الوقت الذى أخذ فيه تانكرد يبنى شرقى شيزر أو فى
مواجهة قلعتها حصنا يسهل له الاستيلاء عليها . وهنا ترك
المتحالفون الرها وعبروا فى الحرم من سنة ١١١١/٥٠٥ نهر

الفرات وضربوا خيامهم قرب المعرة في حين اجتمع الفرنج في أفامية ، ولم يكذب ظهر الدين طفتكين يصل الى حمص حتى دب الخلاف بين المتحالفين الاكراد فتراجع أغلبهم بينما التقى مودود وطفتكين مع سلطان .

وعلى الرغم من خطورة المعركة وضراوتها - وقد كان عدد الرجال الشيزريين وحدهم خمسة آلاف - وعلى الرغم من أن أسامة كان إذ ذاك في السادسة عشرة فقد وقف الى جانب عمه يندود عن مؤخرة المتقدمين الذين كان يقودهم مودود . ودان النصر لشيزر ورحل الفرنج وقد كادوا يتمزقون بددا ، في حين انقلب أسامة الى القلعة والدنيا تضيق بسعاده .

وهكذا بدأ نجم مؤيد الدولة أسامة - الذي كنى أبا المظفر - في الصعود ، وبدا وهو يكتمل أسباب النمو والنضج أحد المجنودين . . فان كل شيء قد تهيأ له ودان ، وصار بين أبيه وعمه ما يشبه التواطؤ على أن يكون أمير شيزر في المستقبل بخاصة أن صاحب العرش حتى تلك المرحلة من حياته لم يعقب ذكرا يرثه .

وما كان أحد ممن اختلطوا به في شبابه تلك الأولى يحتاج الى ما يدل على أنه كان يمثل التفوق البدني . . فهو جسيم كأيه مفتول الساعدين عريض المنكبين ، وكان وجهه الذي طر فيه شارب على شفتين مطبقتين ثابتتين ذا جهة عالية يتوجها شعر حالك ، وإذا انتصب فهو الارادة المجسمة أو ركب جواده أتى بالعجب العجيب ، وقد يضع سفرجلة أو برتقالة على الأرض ويقف بعيدا عنها أربعين خطوة فيصيدها بالنشاب .

ولقد كان في أثناء المعارك يث الشجاعة في قلوب الجند المقاتلين ، وذلك عند ما يكسر على أعدائه بجرأة الليث واقدامه ، وأنه ليكفيه زرد عادى - غير ثقيل - ليقترحم بقنطاريته وهو على الفرس حياض الهلاك فيجعل من الهزيمة نصرا مؤزرا .

وكان قليل الكلام ، لكنه اذا تحدث فبذلك الصوت الملىء بالثقة مع أن ستة عشر عاما أو سبعة عشر لم تكن بالسن التي تمثل تمام النضج . وقد انقلبت موازين الحكم عليه أو تغيرت ، فأما معلموه فقد أجمعوا على أن طاقته على التحصيل نمت فجأة ، وأما عمه فقد ارتضى ذلك بعد أن كان يسوؤه منه انصرافه عن المدارس والمذاكرة (١) ، وأما أبوه فكان يؤكد لنفسه أنه حيال انسان لابد أن يعود غيره على الف طاعته وقبول أمره .

وربما لأنه محدود - مع ذكاء بين - وصل بسرعة الى أن يتعمق القوانين الأخلاقية التي سادت عصره . وعلى الرغم من وجود قيم ذاتية عنده قد تشغله أحيانا عن العلاقات الموضوعية ، فقد ظل على اعتقاد بأن الفرد للمجموع بلا أدنى معارضة ، وأن الأثرة التي وجهت في الصميم ضربات مسددة الى حلف سنة ١١١٠ يمكن أن تهدم كل حياة يراد منها أن تكون كاملة . ومن أجل ذلك لابد أن يعرف الناس ويتصل بهم ويفهمهم ، ويقرأ تاريخهم ويعرف أساطيرهم ، ويحفظ أشعارهم ويلم بأخبارهم ، على أن يكون لهم بادية بدء شيء يجمعهم وأجمل ما يكون هذا الشيء اذا قصد به صالح الأقوام .

(١) بلغ من حب سلطان لابن أخيه مؤيد الدولة أن ذكره في شعره برائية رائمة مطلقا :

أين مضاء الصارم الباتر من لحظات الفاتن الفاتر
وفيها يقول :

وقهوة تحسب كاساتها كواكباً في فلك دائرى
رعت بها ليل النوى فانجلى عن شمس هذا الزمن الناضر
وابعد الأخطار تقربها مؤيد الدولة من خاطرى

(٣)

فى مهب الريح

كان العام التالى من الأعوام الحاسمة فى حياة أسامة ، فقد أرسل تانكرد الى بنى منقذ فارسا صليبيا بغلمان له ومعه رسالة موجزة يقول فيها « هذا فارس محترم منا كان يحج ، ويريد اليوم أن يعود الى بلاده ، لكنه يطلب أن يقضى بينكم بعض الوقت ، فاستوصوا به » .

وبدأ الفارس حدثا طويلا حسن الصورة ، غير أن وجهه كان مليئا بالندوب وقد شج رأسه من عند المفرق تماما فهو يضع الخوذة فوق الشجة . وتحجب الى أسامة فتقرب هذا منه ، وفى الساحة ضاربه بالسيف فلم ينل منه شيئا ، وتراميا بالنشاب فتفوق عليه ، وداعب برمحه رافع بن سوتكين فظهر عليه بينما أثار الضحك على عتاب العملاق . وأما المصارعة فقد تفوق فيها أسامة ، وألقاه على ظهره ثم عاد يرفعه والفرنجى يحاول عبثا أن يقلت منه ، فلما قال له :

— لا شك أنك مصارع قدير ..

عقب أسامة بقوله :

— علمنى أبى وهذا العتاب ..

ولم يستشعر زهوا كبيرا ، لأن القوة العضلية لا تعنى شيئا إذا ووجهت بالزرد الثقيل والسلاح الصقيل ، أو حتى إذا ووجهت

بخبرة المقاتل الذى يعرف كيف ينقض بسيفه فى اللحظة المناسبة .
ان الشوط أمامه لا يزال طويلا ، وقد نبهه عمه منذ أيام الى ذلك
عندما قال له :

— أتريد أن تكسب الحرب يا مؤيد الدولة ؟ اذن دعنى أقل
لك لا تعتمد على القوة وحدها ، بل ربما كان تنظيم الجيش المدرب
فى المعركة أول أسباب النصر ، ويوم تتعلم كيف تنظم جيشا فتق
أنى سأكون أول المشتغلين تحت قيادتك .

على أن الفارس الصليبي قال له ورافع بن سوتكين يقوم بدور
المترجم :

— ومع ذلك فانى أزعم أنك لو كنت مع اسباسلار فى المعركة
الآخيرة لأغريتنى بمجالدتك ، واذن لما عشت حتى اليوم .

ثم سرد عليه كيف كان فى المؤخرة مع تانكرد ، وقد سقط عن
جواده وضاع سيفه ولم يبقه حيا الا كراهية لمقاتليه ، فان الجندى
عندما تحقيق به الهزيمة ويريد أن يفر تشيد قدميه الى الأرض تلك
الكراهية وحدها . وحقا أثارت أقوال الفارس طلعتة — وهو
الراغب فى أن يعرف الكثير — وأعطته صورة واضحة عن طبيعة
المعركة الا أن شيئا واحدا فقط ظل يلح عليه ، وهو توجيه الدعوة
اليه لزيارة أنطاكية باسم تانكرد . وقبل أن يظفر بموافقة أبيه
وعمه قتل ذلك الأمير فى أحد أيام ديسمبر من سنة ١١١٢ ولم
يسفر قتله — للعجب الشديد — عن تحسن فى الموقف ، فمن
ناحية دبت الفرقة فى المعسكر الاسلامى بقتل مودود واسطة عقد
الجهاد وهو فى ضيافة طفتكين — قتله أحد الحشاشية الباطنية
الذين هم أعداء ألداء لبنى منقذ — ومن ناحية أخرى بدأ
شهاب الدين محمود بن قراجا صاحب حماة فى شن الحملات
على شيزر .

وهكذا مات أمل السفر في نفسه ، لكنه لم يفرق في الأسى ،
لأنه ما لبث أن شغل بمعاركه مع فرسان حياة ووحوش الفلاة ،
ضاربا أروع المثل للتحمل والاقدام . والطريف أنه وجد الوقت
بعد ذلك ليلهو ويصبو ، فكان يتعقب الجوارى أو كن يتعقبه
فيولين وده ، دون أن يتبدل ويتخلع ، وربما صاغ عواطفه
الجياشة شعرا فيقول فيما يقول :

يا دهر مالك لا يصدك عن مساءتى العتاب
أمرضت من أهوى وبأبى أن أمرضه الحجاب
لو كنت تنصف كانت الأمراض لى وله الثواب

كذلك تمكن من القيام برحلة صيد طويلة زار فيها عدة مدن
بعضها كان في أيدي الفرنج ، واسترجع شريطا من الأحداث أن دله
على شيء فعلى الفرقة التى مكنت الفاصبين من امتلاك أجزاء
عزيرة من الوطن العربى ، وفى المقابل تجمع هؤلاء الفاصبون بعد
أن كانوا شيعة وضربوا بمواضع الريبة بينهم عرض الحائط ،
وغمرتهم فروسية خسنة وعارمة بعد أن رأوا تقلص نفوذ المسلمين
عن صقلية وأقريطش ووقعهم أسرى التحزب فى بلادهم ، فقدموا
ولم يعد يجدى صدهم .

وأمام حصن الأكراد وقف طويلا ، فان صاحب حمص شاء
أن يقدمه لريموند فسيطر عن طريقه على الممر الخطير الذى يصل
بين السهول الساحلية ووادى العاصى ، ولو أنه قاوم كما قاوم
أبوه وعمه فى شيزر لتغير الموقف كله على أكبر الظن . لكن لماذا
يعد وأبوه نفسه يحكى له أن سقمان بن أرتق عندما سمع لأول
مرة بمقدم الصليبيين - وكان فى اجتماع بشيزر مع صاحب حلب
للوثوب على دمشق لم يحرك ساكنا إلا بعد أن ترامى إليه أن ديار
بكر شقت عصا الطاعة على بنى أرتق ، وزاد فطلب من المجتمعين
مساعده .

وفي جيلة شاهد آثار المعركة حيث التقى ريموند بجود فرى دى بويون شقيق بلدوين - ملك اورشليم الآن - وأخبر بأن ابن عمار الذى كان ولى نعمة أستاذه أبى عبد الله الطليطلى سووم على امارته . فوافق ، ولكنه لم يمكث فيها الا ريثما يحقق الصليبيون غرضهم فى بيت المقدس ؛ فقد عاد ريموند اليها وبنى ازاءها قلعة على تل الحجاج أصبحت نواة لحي الفرنج ، وفي سنة ١١٠٤ تسقط طرابلس بعد وفاة ريموند ، وفي سنة ١١٠٩ تدمر مكاتب العلم فيها والمدارس التى كان يتردد عليها كبار علماء المسلمين وأدبائهم (١) .

تاريخ مخز فى جملته ، ويزيده خزيا تهاون الفواطم فى الدفاع عما كان بيدهم فى فلسطين ، وما يعمد اليه الباطنية الحشاشون اليوم من مد يد العون الى الفرنج بما يعينهم على تثبيت أقدامهم .

وكانت النتيجة التى انتهى اليها وأفضى بها الى رفاقه هى أن استبدال الحركة الضاربة بالخطبة البليغة عمل أساسى فى دفع المغيرين ، لكن ما السبيل الى ذلك ؟ ان لم الشمل فى اجتماعات تعقد لا يسفر دائما عن شيء ، والنية الطيبة وابداء العزم والاقسام

(١) للتأكد من صحة ما صدر عنه أسامة بن منقذ يحسن أن يراجع الكتابان التاليان :

S. Runciman : History of the Crusades, vol 1, p. 97. Cambridge University Press, 1958.

R. Grousset : Histoire de Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, vol. 1, p. 125, Paris 1934

مع المقابلة بما سجله ابن العديم فى منتخبات من تاريخ حلب ٥٧٨ وما بعدها (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية الشرقيين - الجزء الخامس) وابن القلانسى فى ذيل تاريخ دمشق ١٦٣ (ط . ليدن سنة ١٩٠٨) وابن الأثير فى الكامل ٨ : ٢٦٢ وما بعدها ، وسبط بن الجوزى فى مرآة الزمان ١٧ (ط . شيكاغو سنة ١٩٠٧) .

المغلظة عقاير مخدرة أكثر منها أدوية للأدواء ، وقراءة أشعار
الفرسان الأولين ورواية أخبار المغازى واسترجاع أيام ابن الجراح
وخالد وطارق يقف أمرها عند حد الإثارة فقط .

لقد ترعرعت فيه روح النظر الناقد ، وهى الملكة التى تدعم
الإيمان وتجمع بينه وبين كل من يسعى جهده ليكون شيئاً . ثم
انه رأى الفرسان الذين على شاكلة أبيه وصديقه حمدات وغلामه
أسد لا يؤدون تماماً كل ما تستلزمه ضرورات اليقظة الحربية ،
أى عليهم لاستكمال عملهم أن يكونوا ربيئة لا أن ينتظروا لحظة
الطعان . وإذا ما بثوا هنا وهناك وضربوا فى أغارات متكررة معاقل
الافرنج ، أقضوا مضاجعهم ، وشفلوهم عما يستهدفونه من
التوسع الاقليمى على حساب أقوام المسلمين .

وكذلك غدت حال أسامة طوال العامين اللذين أعقبا مصرع
الاسباسلار مودود ، وكان قد أتم العشرين وعيون قومه ترمقه
وقلوبهم ترعاه ، وصح هو عزمه على أن يكون للجميع . . فارسا
عربيا يدود عن حمى المسلمين كل دخيل ، حتى ولو رفع فى هذه
الغاية النبيلة حياته ، وانه وقد شاخ وهرم ليذكر الخطط
والأساليب التى كانت تطوف برأسه فيعجب لماذا تعثر طويلا قبل
أن يجد الحل النهائى .

الصيد المقاتل

ما كان لأسامة بن منقذ أن ينكر في يوم من الأيام أنه أصبح انسانا موقفا ، بل انه على العكس يبدو دائما فخورا غاية الفخر بأنه يستطيع الوصول أو هو مسوق الى الوصول نحو ما يريد .. كالصياد الذي يرتاد آجام أفامية فتواجهه الوحوش وقد قدر لها - بعد مقاومة ما - أن تستسلم له !

لكنه الى جانب ذلك يقع على الصيد الثمين ، فالذئب مثلا أو الفهد أو الضبع مما لا يدخل في تقديره اطلاقا ، والأسد هو مناط أمله في كل وقت ، وقد يعف عنه اذا كان صغيرا . فلماذا يكون صغير الهمة وهو قادر على أن يكون عظيما ؟ لقد نظر الى الحياة على انها غابة تصطرع فيها الوحوش ، ومن واجبه أن يتصيد الكثير منها .

ولقد أسعفته بنيته وملكاته التي أصلتها قدراته الواسعة على أن يصل سريعا ، ويصبح بطول قامته وقوة بدنه ووقفته المتأهبة دائما للهجوم البطل المرموق . وكان حين يمد بصره أو يرفع عينيه يؤكد أن وراء أنفه المقوس قليلا ولحيته المدببة ارادة يشعلها نفاد صبر ونفاذ بصيرة .

وفي مذكراته يعنى تماما بأن ينفذ الفبار عن ملابسه كلما اضطر الى الاعتراف بأنه التقى بالمحظوظين وأصابه حظهم ، فربما يكون أسهل على المرء أو ألزم له أن يقرر أن القدر اذا كان يتكلم

فمن حق الانسان أن يرفع صوته أيضا ، وهكذا لا يكون للحظ دور ما أو يكون له دور ثانوى على أكبر تقدير .

وإذا نحن تابعناه وصدقناه فيما يرويه عن نفسه ، يكون من الضرورى أن نعترف بأنه لم يصبح الفارس الموفق الا بعد أن تعلم كيف يوفق . وهو لا يقتل وحشا ولا آدميا الا لأنه درب على قتلها واحتاج الأمر الى ذلك تماما ، ولا بأس بعد ذلك إذا راح يردد أن الأعمار بيد الله ، وأن القتال لا يقصر عمرا قط ..

وابتداء من عام ١١١٨ حيث قتل الباطنية الحشاشون محمد ابن ملكشاه - فجمع ابنه السلطان محمود بين صاحبى حلب ودمشق نجم الدين ايلغازى بن أرتق وظهر الدين طفتكين - قوى أمله فى الخلاص ، وبخاصة عندما أعلن عمه سلطان أن شيزر تؤيد فكرة الاتحاد الجديد .

وإذ تصطدم عمليات التنفيذ ببعض العقبات السياسية ، لا يجزع ، ولا يفرعه التأخير .. فالخطة التى وضعت واتخذت نبراسا لحياة أقوام المسلمين - وهذه تسميته - والعقيدة التى نظم هؤلاء فى ضوءها وجودهم كانتا واضحتين الى حد أن اخفاءهما أصبح من قبيل المحال ، ولعله حين لم يجد حرجا ولا اثما من اشتغاله بأمر الجوارى كان يزجى البرهان ازجاء على ذلك ، والا فما كان أسرع ما يجد من الشائين ، وهكذا يتمكن من أن يقول :

لم يبق لى فى هواكم أرب	سلوتكم والقلوب تنقاب
أوضحتم لى سبل السلو وقد	كانت لى الطرق عنه تنشعب
الام ومعى من هجركم سرب	قان وقلبى من غدركم يجب
ان كان هذا لأن تعبدنى الـ	حب فقد اعتقتنى الريب

أحببتكم فوق ما توهمه النا

س وخنتم أضعاف ما حسبوا

ومع ذلك فسرعان ما تغير حكمنا عليه اذا علمنا أنه لم يستكن الى واحدة قط ، فضلا عن أنه يصرح بأعماله أن هواه مع غير الفيد ، ومن ثم فان علينا التماسه حيث تكون المخاطرة نوعا من التحدى لقواه .

هو يحكى أنه سمع ذات يوم صراخا بأن وحشا يرتاد دروب البلد ، ففرع الى سلاحه وعبر الجسر فوق ديس الأعشاب والقصب ، غير أنه لم يكد يتوغل في احد الأدغال - وراء الوحش - حتى سأل « ماهو » فلما قيل له « أنه ضبع » قفل راجعا وهو يستشعر تقززا ، فما لهذا الحيوان التتن يخرج ، وما لهذا المخاوق الذى لا يأكل سوى الرمم يحمل رمحه وخنجره ، وعجب اهله وقال لهم :

- اننى أعفى نفسى من هذه البهيمة الخبيثة ، وأتركها لأمثال اسحاق الحجام .

ولم يكن بد من أن يحتج ذلك اليهودى ، ويعبر عن احتجاجه بالقاء آيات من مرثى ارميا ، لأنها كانت كل ما يحفظ من التوراة .

ويحكى أيضا حكاية دنكرى - يقصد تانكرد - قبل أن يموت مع حسنون الكردي وذهابه بالفرس الذى سابق به الفرسان في انطاكية فسبقهم .. ولما اعرّب تانكرد عن استحسانه رجاه أن يصطنعه ويطلقه اذا عن له أن يضرب شيزر في المستقبل ، وقد حدث أن وقعت الحرب على ما مر بنا ، وأسر حسنون فأمر تانكرد عساكره بقلع عينه اليمنى برغم تذكيره بالوعد الذى قطعه على نفسه ، ولم يخل سبيله الا بعد أن اشتراه مرشد بألف دينار وحصان أدهم من خيل خفاجة الممتازة .

وقد ود أسامة أن يلحق تانكرد ذرسا في احترام الموائيق ،
الا أن الموت اخترمه ، فلما دعاه روجر ليركب الحصان الأدهم
أمامه - وقد عجز فرسان أنطاكية عن ترويضه - رفض قائلا :
- أنا لا أروض ولكني أقاتل .

وأخيرا يحكى أن عمه عندما أعرب عن رغبته في الانضمام الى
الاتحاد الذى يدعو اليه السلطان محمود قال :

- لنبدأ بضرب أفامية فيكون هذا إعلانا منك بانضمامك الى
معسكر السلطان محمود .

ويحدث أن يموت بلدوين الأول في اورشليم (١) فيخلفه بلدوين
الثانى الذى كان أمير الرها ، وهنا يبدأ ايلغازى بالزحف على هذه
المدينة ويطلب من سلطان أن يناوش أنطاكية ليشغل فرنج الشمال
ويوزع قواهم .. فتتحقق فكرة أسامة سريعا ، ويتحققها تشهد
ساحات أفامية ضرباته القاضية ، ويصبح في أنطاكية حديث
الجميع . ولما زارها بعد ذلك بعد أن اتفق على الصلح استقبل
استقبال الأبطال ، والتف حوله فرسان الأفرنج يدفعهم - عدا
الاعجاب - فضول لمعرفة نوع السلاح الذى كان يضرب به والدرع
التي كان يرتديها .

على أننا لا نتعجل الحوادث ، ونذكر أن ايلغازى بعد أن غزا
الرها استنجد روجر ببلدوين الثانى فتلكأ عليه وان وقع معه
اتفاقا يقضى بأن يرث كل منهما الآخر في حالة موته ، ولما مد يده
الى « يونس » أمير طرابلس نصحه بالمهادنة أو المماطلة حتى يصابه

(١) كانت وفاته في سنة ١١١٨ وقد بلغت مملكته أوج مجدها ممتدة
من العقبة الى بيروت باستثناء صور التي بقيت في يد المسلمين حتى
سنة ١١٢٤ وعسقلان التي لم تسقط قبل عام ١١٥٣ - يراجع ابن الأثير
٨ : ٢٨٤ في حوادث سنة احدى عشرة وخمسمائة هجرية .

مدد الفرنج . وقد اضطرت الظروف بعد ذلك الى أن ينزل بحقل الدم - وهو واد في طريق حلب - فتعقبه ايلغازى بأربعين ألف محارب بددوا شمله في معركة البلاط حتى لم يفلت من سيوف المسلمين سوى مائة وأربعين فارسا ، وكان من القتلى روجر نفسه فخلفه على أنطاكية بلدوين الثاني بعد سنة واحدة من تنصيبه ملكا على بيت المقدس اى في سنة ١١١٩ .

وفى أفامية حيث كان أسامة يستنفر همم العرب والاكراد لنهب الزرع وضرب القلعة بلغه نبأ وصول بلدوين الى أنطاكية وهو يظن أن ايلغازى فيها ، وحكى له عمه الذى كان متقدما بعساكره فى جبهة أنطاكية أن هذا الأمير كان اذ ذاك فى « خماره » المعروف ، فقد كان من عادته أنه اذا شرب النبيذ يخمر عشرين يوما . فشرب بعد كسر الفرنج ، وما أفاق حتى وصل بلدوين الثانى بقواته .

ومنذ عودة أسامة الى شيزر وهو يستشعر ضيقا ، ثم تنبه الى أن ما بين أبيه وعمه يؤذن بشر مستطير . وكان الخط يملأ دور القلعة حيث يسكن بنو منقذ - أعمام أسامة وأولاد أعمامه - ونجم عن ذلك خروج بعضهم الى أقطاعهم ، ومن هؤلاء مرشد نفسه وكان قد طلب من أسامة أن يهيئ نفسه للزواج والتفرد بحياته فى مزرعته .

وكان من العجيب أن يحدث ذلك فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ الصراع الاسلامى الصليبي ، بل الأعجب أن يقبض سلطان يده عن أخيه وأهله حتى يضطر هذا الى أن يبعث له بقصيدة يقول فيها :

فمالك لما أن حنى الدهر سعدتى
وثلم منى صارما كان ماضيا
تنكرت حتى صار برك قسوة
وقربك منى جفوة وتناثيا

فأصبحت صفر الكف مما رجوته
كذا اليأس قد عفى سبيل رجائيا
على أننى ما جلت عما عهدته
ولا غيرت هذه السنون وداديا
فلا زعزعتك الحادثات فأننى
أراك يمينى والأنام شـماليا

على أن توسط الأمير ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق فى
النزاع بين الأخوين عجل بفضه ، والتأم شمل الأسرة ثانية
وأسندت قيادة الفرسان لأسامة بعد أن أقر له بالفضل والتفوق .
وقبل أن يعقد على من ارتضاها لنفسه زوجا ، قام برحلة الى
أنطاكية بينما عمه كان يضع خطة للاستيلاء على هذه البلدة
العظيمة .

مع فارس صليبي

تولته الدهشة تماما برؤية أنطاكية ، وكان قد اعتزم أن يستبعد الاستباقيات ومباريات الفروسية من برنامجه ، وأن يقف كل أيامه على تفهم حياة الفرنج الخاصة ، إذ كان يؤمن بأن من أسباب قهر الخصم معرفته معرفة تامة .. بل لقد فكر في أن يدرس لفهمهم - كما يصنع أغلب الذين يختلطون بهم من التجار ونحوهم - وأن يحفظ في كل يوم مائة كلمة يكرسها لهذه المعرفة الضرورية .

ولقد قيض الله له طبيبا نصرانيا نزع من المنيطرة وكان يتردد على شيزر قبل أن يتصل بالصليبيين ، فأعانه على ما يريد ، ووفر عليه كثيرا من الجهد وإن ظلت النتيجة التي ابتغاها دون ما أمل . إلا من بضع عشرات من الألفاظ التي تبين أنها من عدة لغات لا لغة واحدة . وبين البربرة الأفرنجية بالسقلاطون والبرونس وأنبرجاسي والزربول والداما - وهي تعني الثياب المزركشة والأمير والبورجوازي والحذاء والسيدة - أدرك بعد الشقة بينه وبينهم .

وأخذت روحه الناقدة تزن وتحكم ، وقسا في حكمه عندما حكى له الطبيب النصراني أنه كان يتعهد مريضين في أسرة أفرنجية ، ولما عز الشفاء استدعى طبيب أوروبي ، وبعد أن فحصهما قرر أعجب علاج . فأما بالنسبة للمريض الأول فقد أمر

أن توضع ماقه التي توجعه على خشبة غليظة ، ثم أشار الى فارس بأن يهوى عليها بفأسه فيقطعها بضربة واحدة . وأما بالنسبة للمريض الثاني - وكان سيده - فقد أمر بحلق شعرها ، ثم عمد فشق على الرأس صليبا غائرا وذلكه بالمح رجاء أن يطرد من نفسها الشيطان !

وقد فارق كل من المريضين الحياة ، وأبعد النصراني في حين بقى الفرنجي ليمارس الطب بآساليب سقيمة تدل على تخلفهم .

ومن هذا التخلف عطلهم من الحمية والفيرة - وهما في نظره آية الرجولة - حتى أنهم ليسمحون لنسائهم بالاختلاط والظهور مع الرجل حيث ينبغي أن يحتجبين ، بل لقد رأى بعض النسوة وقد لبسن الشفوف المطرزة وجلسن على الدواوين يصفين الى انقام العود والرباب .

وأكثر فظاعة من ذلك أساليبهم في معاملة المذنبين ومعاقتهم بالماء أو البارزة ، وأرجلهم مصفدة حتى الموت ، دون أن تكون ثمة حاجة الى الاحتكام لقاض يفصل ويأمر بتوقيع العقوبة وطريقة تنفيذها .

وشاهد مجالدات الفرسان فاعترض على خشونتهم التي كان ينبغي الاستعاضة عنها بدقة المراوغة ، واقترح أن توضع على الخيل الدروع . . لكنه دهش غاية الدهش عندما قيل له ان الفرسان مجاسا له الحق في أن يحكم ولا يرد حكمه أحد مهما تكن منزلته ، وإذا كانت مهمة كل فارس محفوفة بمظاهر القداسة فانما لأنه اغتسل بماء الكنيسة المبارك وتناول العشاء الرباني بعد أن يقضى للقس بذنوبه وخطاياها . وعلى أي حال فان من فضائل فرسان الصليب الشهامة واستعدادهم في كل وقت لايواء الارامل والاقتصاص للمظلوم ، وقد لخص أسامة لبعض الداوية

واجبات الفارس المثالى فى عبارة موجزة هى « القوى للضعيف
والفرد للكل » .

ثم كان لابد أن يرحل ، فقد نعى اليه أن خيل شهاب الدين
محمود بن قراجا اجتاحت « سروج » وراحت تغير على شيزر ،
وكانت هذه هى الاغارة الثانية . وأما الأولى فقد وقعت أوائل
العام - ١١٢٠/٥١٤ - ويذكر هو كيف كان وفرسان القلعة على
فسحة من البلد ، فلبست كراغندى (١) وربت حصانى وأخذت
رمحى ومعى أبى على بقلعة فقلت له :

- يا مولاي ما تركب حصانك ؟

قال :

- بلئ !

وسار كما هو غير منزعج ولا مستعجل ، وأنا لخوفى عليه الح
على أن يركب حصانه الى أن وصلنا الى البلد وهو على بقلته ،
فلما عاد أولئك وأمنا قلت له :

- يا مولاي ترى العدو قد حال بيننا وبين البلد وأنت لا تركب
بعض جنائبك وأنا أخاطبك فلا تسمع ؟

قال :

- يا ولدى فى طالعى اتنى لا ارتاع !

وشاء أمير أنطاكية الذى أعجب بشمائله أن يجعل من سفره
فرصة أخيرة يعرب له فيها عن تقديره ، فأمر بثلة من الفرسان
ترافقه حتى مشارف أنطاكية ويدع بقية الطريق نحو أفامية الى
بدرهوا أقدر فرسانه على الإطلاق .

(١) الكراغند : سترة تقوم مقام الدروع .

وكان هذا الفارس أحد البارزين في جيش بلدوين الأول ،
وقد ذكر لأسامة أن مادعاه الى ترك اورشليم بعد وفاته تهاون
بلدوين الثانى وغروره ومحاولته الايقاع بين الاستبارية والداوية
مع أن الواجب يقضى بالتآخى تحت لواء يسوع الرب . وأعلن عن
طريق ابن سوتكين أن المعارك التى ستدور بين حماة وشيزر
- كالتى دارت - لن تسفر عن شيء ، لأنها أشبه بأعمال النهابة
والحشاشية ، كما قال ان اليهود الذين تكالبوا على الخدمة في
بلاط الأمراء الافرنج انما يضعون مخططا للاستيلاء على اورشليم .

- أنصطاد غدا في بعض الطريق أيها الأمير ؟

- اظن أننا لا نستطيع .

- أشهد في قلعة المضيق سباق الخيل ؟

- ولا هذا ...

- أنك تعسى ، فالصيد والخيل هما بعد الحرب ما يدفعنى

الى ابقاء في الشرق .

ثم حكى لهما - أى لأسامة وابن سوتكين - أن أعظم فارس
في حصن شيزر هو أبو محمود جمعة النميرى ، وأن أطيح مجالد هو
عتاب العنلاق وأن أخطر أمير مسلم على أنطاكية لم يظهر بعد
وأن يحيى بن صافى الأعسر وسهل بن أبى غانم الكردي وحارثة
النميرى وفارسا رابعا لا يذكر اسمه كانوا ضحايا سيفه قبل
أن يفدوا من أشهر فرسان شيزر .

وقد لاحظ أسامة أن بدرهوا لم يكن يسهب في الكلام الا بعد
أن يفرط في الشراب ، واذن فلا بد أن تكون كل بضاعة هذا الفارس
الثرثار ثرثرة ، لكنه بدأ يصدقه أو يهتم بما يدلى به عندما قال :

- لا تحسب انى أفقد وعيى اذا شربت .

قال أسامة بعد أن ترجم ابن سوتكين :

— وهل قلت هذا أيها الفارس ؟

قال بدرهوا بعد أن سكت قليلا :

— الخمر تقتل أيها الأمير .

فسال أسامة :

— وهل قتلت أحدا ؟

فأجاب بدرهوا :

— قتلت ايلغازى فى انطاكية .. ألا تذكر ؟

وعجب أسامة ، غير أن بدرهوا لم يشأ أن يمنحه فرصة واحدة للتفكير ، فقال له :

— أتحب أن تسمع ماذا كان بينى وبين جمعة ؟

وراح ينشر من الماضى صفحات طريفة .. كان هذا الفارس على قلعة المضيق فى أفامية ، ووصل جمعة أكثر من مرة الى هذه المدينة ولم يهيا له أن يلتقى به . وكذلك وصل بدرهوا الى شيزر مرات عدة وسأل عن جمعة دون أن يلقاه ، وفى احدى المرات خرج مناديا فى عسكر المنقذين وهو على الشاطئء الآخر من العاصى :

— فيكم جمعة ؟

قالوا :

— لا ..

ولما هم بالرجوع قالوا :

— فينا غيره أيها الملعون ..

وهكذا خرج اليه الأعسر وأصحابه ، ومن السهل بعد ذلك تصوير الباقي .. فقد كسرهم وردهم الى العرب مشخين بالجراح وهذنا لحمته من التشهير والتنديد ، وكان جمعة من أشد الناس حملة عليهم . ماذا كانت النتيجة أيها الأمير ؟ لابد أنك تعرفها ، فليس من داع الى أن أقرر أنني أنا سبب تفوقهم ، لأنهم عكفوا على التدريب . ان المحارب الذى يضع سلاحه ساعة الراحة يقطع من عمره يوما .. !

واقربوا من بعض الغابات ، فانشأ بدرهوا يتحدث عن قصص الحيوان المفترس وكيف يختلف عن اصطياد الغزلان والطيور والأرانب باليازى وبالباشق .. هنا المتعة تختلف عن المتعة هناك، وربما يكون قهر الموت فى مواجهة السبع - مثلا - هو الذى يضاعف من لذائة الانتصار ، ومع ذلك فيجب أن يكون فى تقديرك أيها الأمير أن الحيوان المفترس أنواع ، وأخطر هذه الأنواع هو النمر ، ولذلك فانا أحبه وأسمى وراءه فى الفارات والمجاحر .

- هو يشبه الضبع فى ذلك .

- فليكن

- وقد يرتاد المقابر .

- أجل ... أجل .

- اذن فهو حيوان وضعى !

- لكنه خطر ، وله من خفة الحركة والقدرة على التربص ما يكفل له الحفاظ على حياته .. لكن اهذا كل شيء ؟ ان كان ، فما أشبه به يونس حاكم طرابلس الملعون يوم أراد ضربنا ، بل ما أشبه به ابن قراجا .. كل منهما على أى حال يقفز ويخاثل ، يتسحب تسحب الثعبان ، والا فهو أسرع من الهواء .

— كأنك لا تواجه من الوحوش إلا الأسد أيها الأمير ؟

— مالم تكن هناك حاجة الى غيره ..

— ان كنت كذلك فبيننا من الأسود آلاف !

ولم تكن هذه كل بضاعة بدرهوا ، فانه بعد ان أكد انتماء الى « الراعى الصالح » الذى عاد جنوده الى اورشليم بعد ألف ومائة من السنين ليرثوا الحياة الأدبية قال :

— أتعرف أيها الأمير ، ماذا كنا نفعل ونحن على أسوار بيت المقدس واقتنار الدولة فيها يرمينا بالموت ؟

أجاب أسامة :

— رميتموه بالموت أيضا .

فقبال بحماسة وانفعال :

— ولكننا كنا ننشد « سلام لك أيها السيد الكريم ، ما أغزر الدموع المنسكبة من عيون شعبك حينما طالعوا أسوار وطنك وأسوار اورشليم » وبعد أن طفنا حول المدينة صعدنا جبل الزيتون حيث قام فينا بطرس الناسك واعظا ، ثم اقتحم تانكرد قلب المدينة ، فأما من اعتصم بحرم المسلمين فقد وضعت فيه السيوف ، وأما من لاذ بالمبكى فقد عفر الجبين بالتراب ففاز بالحياة ولم يمت إلا من كان ينشد « عادل الرب لأنى عصيت أمره » (١) .

(١) يحسن أن يقابل هذا بما سجله وليم الصورى William of Tyre

فى كتابه المعروف A. History of Deeds Done Beyond the Sea, Tr. Emily A. Babcock and Krey ; New York 1943.

وقد علق البروفيسور جروسية على ذلك فى كتابه المذكور بالحاشية رقم ٨ بقوله ان تلك الواقعة جعلت الصليبيين لا يدكرونها الا وتشمئز نفوسهم وتتشعر أبدانهم .

واستشاط أسامة غضبا ، وبدأ يضيق بالفارس الصليبي ،
وتاق الى الساعة التى يصل فيها الى أفامية فيتركه ، غير أن
اليوم التالى كان يدخر له الكثير من القلق ، فقد أخبره بعض
المارة أن الحمويين جمعوا لشيزر مئات من التركمان وغيرهم
وباسطوها على فسحة من البلد .. فقرر أن يختصر الطريق
باجتياز منطقة الغابات ، وكانت مناسبة طيبة لبدروها أن يفيض في
فضائل السفر داخل الغابة .. ففضلا عن تجنب غارات النهاية
وملاحقات بدو أفامية فإن في الأجسام ما يملأ النفس خشوعا ،
والفرسان محتاجون دائما الى قدر من الخشوع . وقد يفنمون
وحشا لا بأس من أن يكون أسدا ما دام هذا يرضى الأمير ، وربما
استمتعوا برؤية بقايا الفيلة التى جلبها سلوقس من الهند ليستعين
بها في شئون الحرب والتعمير .

— أتعرف شيئا عن سلوقس ؟

— قرأت انه استقدم خمسمائة فيل .

— بل تسعة وخمسين وأربعمائة .. أسكنها في غابات أفامية
ووجدت هى في طيب مناخها وغزارة نباتها وتعدد برك مائها من
رفاه العيش ما مد الله في عمرها حتى اليوم .

— وكم تظن يبلغ اليوم عددها ؟

— لم ألتق بها ولكن الناس تتكلم عنها .

— أشاهدوها بأنفسهم ؟

— أنا لم أشاهد الا حمر الوحش وقطعان الفزلان والأسود .

— وهل لم تر نمرا قط ؟

— في قصر انطاكية نمر .. ألم تره ؟

— لا والله الحمد !

كانت المنطقة تزهو بخضرة تتضاءل بجانبها كل خضرة شيزر والأشجار الضخمة تعانق الأشجار الضخمة ، ومن قلب الغابة تتعالى الأصوات من ثغاء ونباح وعواء وهدير ، وفي الجو حومت النسور وراحت تنفق .. أنا قرأت عن كتاب عربى لا أذكر اسمه الآن يصف أسدا كان فى مثل هذه الغابة تماما ، ومن حوله الأتباع من الحمر والضباع والنمور وغيرها ، وكان الأسد يظن نفسه قادرا على كل شئ حتى أقض مضجعه حيوانان صغيران ضعيفان ، أقرأت هذا الكتاب ؟

— كليله ودمنة ..

— لو أن هذا الأسد عاش هنا لكان لى من شأن آخر ، ولكن يبدو أننا سنجد فى ايلغازى أسدا رائعا ..

— هل تسمع شيئا ؟

— أين ؟

— هنا ..

— لعلها حية ..

— الحية لا تثيرها دوابنا ..

وفى اللحظة التالية كان كل شئ قد انتهى ، أو كان بدرهوا بين فكى أسد لم يدر أحد كيف قفز قبالتهم . ولم يكن من سبيل الى أن يرتفع رمح واحد فى وجه الحيوان الضارى ، فقد جفلت البغال ، وتوارى بدرهوا ولا يزال صراخه يرن فى الأذان حتى انقطع الى الأبد .

(٦)

قتال في سروج

عندما دخل أسامة بندر قنين ودعه ابن سوتكين على أن يوافيه من غده في القلعة . وكانت القرية تبدو مقفرة موحشة ، واستشعر هو أنه موحش أيضا . وقد أخذت الرياح تحمل له سموم الصيف القائن ، فيحث بقلته الى الضيعة التي أقطعها له عمه قرب البلد على الا يمكث فيها طويلا ثم يقصد الى القلعة يسلم فيها على أهله وينضم من فوره الى الجيش المحارب .

ان عمه لا يزال يبحث عن طريق الأمان وأبوه الذي جاوز الستين ينظر الى المستقبل نظرة قلق ، وبقية أمراء بنى منقذ موزعة بين أن تستغل شيزر الهدنة التي وقعت بين ايلغازي وبلدوين الثاني - وتنتهي في مارس من عام ١١٢١ - فتضرب أنطاكية وبين أن تستغل فرصة الهدوء فتقضى على ابن قراجا .

وراحت شواظ النار تسفع وجهه ، فما كل ولا استشعر ضيقا . وعندما التقى بأول صبي من صبيان شيزر لوح له ، ثم التفت الى أبيه أو جده وكان في قارب صيد صغير وسأله :

- كيف الحال يا عم ؟

- الحمد لله ..

- وأخبار الحرب ؟

- مادام ابن قراجا بعيدا فالدنيا بخير ..

- ما قتال اذن ؟

- قد يكون القتال فى سروج ..

ومرق أسامة كالسهم فوق الأخاديد الكثيرة وخرج السندبان والقضب .. ها هنا دارت المعارك مع عساكر أنطاكية ، وسجلت الأحجار حكايات كثيرة عن البطولة والانتصار . لكنه وجد باب الجسر موصدا ، فاستدار الى الباب القبلى ، وراه الديدبان ، ثم تصايحا :

- كلمة المرور

- أنا مؤيد الدولة

- معذرة يا سيدى .. كلمة المرور

- اذن أين الجماعة ؟

- فى أقصى الوادى

- أى وادى ؟

- سروج ...

هذا الغبى يخبر عن الجماعة ويخاف من فرد يدخل الحصن ، وبعد ذلك أعجب كيف ينفذ الى الافرنج ما يكشف عن خبايانا ؟ وما لبث حين تبددت خواطره أن رفع عقيرته بشعر كان قاله :

أحبابنا كيف اللقاء ودونكم

عرض المهامه والفيافى الفيح

أبكيتم عيني دما لفراقكم

فكانما انسانها مجروح

ثم توقف وهو ينحى على نفسه باللائمة ، واخذ يتلفت حوله ، الا أن الطرقات كانت خالية . ولقد بدا له أن يأوى الى دار أحد أصدقائه فيقيل فيه ، لكن رغبته فى أن يقف على ما يجرى فى

الوادى لم تدع له سبيلا الى ذلك ، فمضى يطوى الأرض بقدر ما تستطيع بغلة أن تعدو .

وعند ثنية من ثنايا الهضبة ، وقبل أن يجد نفسه فى السفح تماما التقى عتابا العملاق فحيا وزعق ، وأنهى اليه أن أباه مفعود فى داره فلم يبرح القلعة ، بينما يقضى عمه وأغلب الأمراء نهارهم فى الوادى . كما أضاف أن أحدا لم يمت من شيزر ، على الرغم من أن شهاب الدين جمع جمع خيرة فرسانه من أمثال حضر الطوط و سرهنك و خلطخ وابن بلداجى .

— وقد تركت الساعة مولاى ذخيرة الدولة أبا القنا فى معركة مع غازى التلى قرب الجلالى .

— والظافر ؟

— من يثبت حتى مغرب الشمس

— اذن دع لى جوادك وخذ هذه

وأسرع فهبط الى الوادى ، فاذا المعسكر هائل فسيح كأنه قرية من قرى شيزر . وكان كله مسورا — متى سوروه — ووراء السور وعلى طول امتداده خندق وضعت ازاءه كتل من الأحجار والأخشاب الضخمة والأوانى التى فيها النفط . وأما الخيم فقد وزعت فى أرجاء المعسكر بانتظام ، وبداخلها رقد المقاتلة فوق حشايا القش وهم يفتنون ويتسابون ويسودون وجوههم التى فى لون الزيتون بالتراب .

وفى الوسط نصبت خيمة كبيرة وقف على مدخلها الخفيض حارسان يحمل كل منهما فى إحدى يديه أو على كتفه حربة طويلة مدببة ، وفى اليد الأخرى الدرع المستديرة بينما تدلى السيف من منطقة الخاصرة . ولم يدخل ، فقد رفض الحارسان ايقاظ عمه فكان عليه أن يتجه الى الجلالى — وهو أحد أفرع العاصى — ليشاهد ما بين ذخيرة الدولة وحضر الطوط . وهناك رأى أخاه

عز الدولة أبا الحسن فقبله ، وأقتعد حجرا الى جانبه وعيناه
على المتجالدين .

وكان الاشتباك بين أبي القنا وحضر الطوط على أشده وكلاهما
يراوغ ويدور دون أن يلهث وان تفصد جبينه بالعرق .. وقد
أدرك أسامة أن أحدا منهما لن يقهر الآخر قريبا ، فأنصرف الى
حديث مع أخيه قطعه اقبال جمعة النمري وهو يصرخ مغيظا :

— طعنى سرهنك بن أبي منصور

ان سنوات الكهولة لم تستطع أن تفت في عضده ، وبدا في تلك
اللحظة جبارا حتى تعذر على أسامة أن يتصور كيف ينال منه
سرهنك وهو لا يزال في مقتبل أيامه لم تصقله التجربة .

— واذا طعنتك يا أبا محمود فأى شيء يكون ؟

— ما يكون شيء الا يطعننى مثل سرهنك ، والله ان الموت أسهل
على من أن يطعننى ، لكنه تغفلنى واعتال زندى .

— هون عليك أبا محمود .

— ما هذا يكون .. لكنك عدت يا سيدى الأمير ، فأهلا بك
في شيزر .. لكن ما هذا يكون !

— أى شيء يا أبا محمود ؟

— هذا الفر الذى يفاقل فيضرب .. أتا لا أستطيع الصبر ،
فلأمض !

— الى أين ؟

— اليه .. والله لأطعنه أو لأموتن دونه ...

ولوى عنان فرسه وقفل راجعا ، في حين وثب حضر الطوط
وثبة هزت ذخيرة الدولة ، فناوشه بطرف سيفه وارتد الى الوراء

خطوتين فأصبح في مأمن من ضربة قاتلة ، وهنا رفع فارس من المتفرجين صوته قائلا :

يا إثم هل عندكم سهام نلهو بها ؟

فتطوع متفرج آخر من الناحية المقابلة وأجاب :

نعم وفستق نتراشق به !

وطارت حفنة من الفستق في الهواء مشبعة بالضحكات .. أنا لا أطيق الانتظار ، فلماذا لا يكسر أحدهما على الآخر كسرة الأسد ؟ لكنهما يحافظان على أصول القتال ، ولا غرو فأحدهما أمير والآخر صنيعة عمه ، إذ كان عاش في قلعة شيزر بعض سني عمره .. وارتفع التهليل عندما زلت قدم الطوط فسقط السيف على مبعدة ، فوثب نحوه ذخيرة الدولة وركله بقدمه الى خصمه ، وعاد الصراع ثانية ، وفي تلك اللحظة قدم جمعة يضحك ...

طعنته .. طعنته !

الحمد لله

لو لم أطعنه لفاضت روحى .

وتقدم جندى فأخرج دجاجة من خرج صغير على ظهره ، ثم جلس قرب قدمى أسامة وهو يقول :

لا بأس على المتفرج من صدر دجاجة ينسيه صدور الفيد .

وكان أبو القنا في تلك اللحظة تماما قد أراد أن يتحاشى إحدى ضربات الطوط ، فاصطدم بفارس كان يحاول أن ينخس زميلا له غلبه النعاس ، فصرخ كالمتوجع :

أوا ... ه !

ففتح النعاس عينيه كالمذعور وهتف :

حسبت أُمى تقبلنى والله .

فضحك الفارس قائلا :

— لعلها من بنى كلاب .

ولسوء حظه كان يمر اذ ذاك جندي شجاع اسمه ابن قنيب الكلابي ، فلما سمع عبارة الفارس قال وهو يدق على كاهله :

— مالك والبيوت العريقة يا بن الأمة !

وعلى هذا النحو انقضى الوقت حتى غابت الشمس ، فدوى النفير أن ابتعدا الى لقاء آخر .. فهوى الاثنان كجذعي سنديانتين عجوزتين ، وقبل أن يهمن بالتحرك مع أخيه الى فسطاط عمه لمحاه قادمًا في كوكبة من عساكره ، وسرعان ما ألقي بنفسه بين ذراعيه وهو يسمع في غمرة عواطفه :

— لا جدوى من بقائنا هنا ، وعلينا أن نتحمل الى القلعة لنرى كيف نضرب أنطاكية .

كان لابد أن يتم إبان هذا زواج أسامة بمن أختيرت له وارتضاها ، وكان لابد أن يوطد العزم على أن يبدو أبا صادقا لابنته التي من الله عليه بها وان يكن مجيئها قد نزل على قلب عمه سلطان بردا وسلاما ، لا لأنه يكره له أن ينجب الذكر ولكن ليكون مثله لا يعقب الا الاناث !

واقترضت الخطة التي أقرها بنو منقذ - بعد مشاورات ومداولات - أن يخرج أسامة الى أفامية وكفر طاب في قوة ضاربة بعد أن استقر الأمر فيها وفي عزاز ومعة النعمان لانطاكية - بناء على شروط الهدنة المعقودة بين ايلغازى وبلدوين الثانى - وكان أمد تلك الهدنة قد انتهى ، وشرع جوسلان أمير تل باشر على أثر قيام بعض القلاقل في وجه ايلغازى بماردين ، فأخذ يغير على القلاع الواقعة من منبج وحلب . وفي يونيو من سنة ١١٢٢ نزل ايلغازى ومعه ابن أخيه نور الدولة بلك بن بهرام في تلك المنطقة ، ولما كان بلدوين الثانى موجودا في تلك المنطقة آنذاك فقد تعين عليه أن يجابه ذلك التحدى ، فيضرب المؤخرة ، أى يحتل سروج وشيزر ليطوق المجاهدين ويقضى عليهم نهائيا .

ولم يغب عن ايلغازى هذا ، فبعث بنور الدولة بلك الى الجنوب في الوقت الذى كان فيه أسامة يعود الى شيزر . وفي القلعة سمع أن جوسلان وقع أسيرا في قبضة بلك ومعه ستون

فارسا أودعوا جميعا في قلعة خربت ، وبعد ذلك بشهرين تقريبا - آى في نوفمبر من عام ١١٢٢ - مات ايلغازى فتوزعت مملكته بين ابنه وابن أخيه وأحد أمراء بنى أرتق اسمه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار . فأخذ شمس الدولة سليمان ميافارقين ، ونال تمرتاش ماردين ، وظفر بدر الدولة بحلب ، في حين احتفظ بك بعض المناطق في شمالي سوريا وبلاد الأرمن (١) .

وكان هذا التمزق في صالح بلدوين الثانى ، فراح يكيل الضربات هنا وهناك . فلما اضطر بدر الدولة الى أن يتنازل عن قلعة الأنارب له رأى أبو العساكر سلطان أن يخف الى بدر الدولة بنجدة ، غير أنه رأى أن يصطنع الحرص . فبدأ بايفاد ابن أخيه ليث الدولة يحيى بن مالك بثلاث كتائب للقتال شاركه في قيادتها ميخائيل الفارس والأعسر ، وحمله عدة هدايا منها مصحف مذهب الأعشار ورعوس السور نسخه أخوه مرشد .

وبرحيل ليث الدولة اتخذت الاستعدادات لمواجهة أى هجوم ، بخاصة أن الذين عادوا من الخارج أفادوا بأن الفوضى سادت ربوع البلاد ، وانتشر قطاع الطرق في شعاب الجبال ، بينما أخذ أعوان بلدوين الثانى يصلبون كل من يتصدى لهم .

ونمى الى بنى منقذ أن ثمة قوات صليبية تزحف في اتجاه شيزر ، وكانوا قد وجدوا من الشيزريين من كشف لهم عن مخاضة يعبرونها - بدلا من عبور جسر أبى المتوج - الى الحصن ، وتبين فيما بعد أن الذى دلهم على موضع تلك المخاضة اسحاق الحجام بعد أن صار على حد قوله مستندا الى التوراة « السيد كعدو ، محق اسرائيل ، محق جميع قصورها ودمر حصونها » .

(١) أبو الفداء ٢ : ٢٣٦ وابن الأثير ٨ : ٣٠٤ ، ٣٠٩ ، ٣١١

William of Tyre Vol. I, pp, 496 ,484,

وخرج مرشد وسلطان لاستطلاع أمر الزاحفين ، بينما بقي أسامة في الحصن . وكان الفرنج قد انتهوا الى الموضع الذي دلهم عليه الجاسوس ، عبروا الماء وملكوا المدينة ، ونهبوا وسبوا وقتلوا ، ونفذوا بعض السلب والنهب الى أفامية وماكوا الدور ، وعلق كل واحد منهم صليبه على دار وركز عليها رايته . فلما أشرف أبى وعمى على الحصن كبر أهله وصاحوا ، فألقى الله سبحانه على الفرنج الرعب والخذلان . فذهلوا عن الموضع الذي عبروا منه ، ورموا خيلهم وهى بدروعهم عليها فى غير مخاض ، ففرق منهم جماعة كثيرة .

كان الفارس يفوص فى الماء فيسقط عن سرجه ويرسب بينما يطلع الحصان ، ومضى من سلم منهم منهزمين لا يلوى بعضهم على بعض ، وهم فى جمع كثير ، وأبى وعمى معهما عشرة ممالك صبيان .

وبالقضاء على المهاجمين والتمثيل ببعضهم انتظر بنو منقذ أنباء القتال فى الشمال ، حتى وصل اليهم أول تقرير ممثل فى ليث الدولة وقد رجع أغبر أشعث وتحيط احدى ذراعيه ضمادة ملوثة بالدم ، وفى الذراع الأخرى المصحف المذهب ، وأسر أحد الأمراء فتناوله منه فى الوقت الذى كان سلطان يهدير فيه قائلا :

— ماذا حدث ؟

أحك ياليت الدولة .. ماذا فعل الله بك وفعلت بعد أن سارت كتيبتك والكتيبتان العربيتان اللتان جهزهما بنو كنانة وقيس من شيزر ؟ قد يكون من العسير أن تحكى كل شىء بالتفصيل ، ولكن لابد أن تذكر ما يكفى لأن يكشف عما جرى منذ خرجت أنت وميخائيل والأعسر .. لقد طلبت أن ألحق بك ، ولكن عمى رفض وما أدري لماذا ، فقل ماذا حدث ؟

— لقد قابلنا فرسان بغدوين (١) وسمحوا لنا بارتياح غابات
أفامية بعد أن ذكرنا لهم أننا مسالمون لا ننشد سوى القنص .
قال سلطان :

— اتعنى أنهم فعلوا ذلك دون محاولة للتأكد ؟
فأجاب يحيى :

— سألونا أسئلة عادية ثم ..

وفص عليهم كيف ألقوا برحالهم ليلتئذ في وادى الميمون ،
ولما كانت الليلة دافئة فقد نام أفراد الكتائب فى العراء دون أن
ينصبوا خيمة واحدة ، وصرخ سلطان :
— بلا حراسة ؟

— قالوا لا تخشوا الا السباع ومضوا فكان ذهابهم دليلا على
حسن نيتهم .
— هراء ..

— أذكر كيف كانت النجوم تلمع فى السماء وكانت اصوات
الفناء التى ارتفعت فى الوادى قد انقطعت تماما ، فقد كان التعب
يملكنا تماما. وهكذا غشيننا النوم ، بل غشيهم هم ، لأننى كنت متنبها
تقريبا عندما سمعت صراخا مدويا يهز جنبات الوادى ، ولكن ..
لكن ربما صحوت على ذلك الصراخ الرهيب ، وعندما حاولت أن
أقف على قدمى غاصت كفاى فى شئ لزج ساخن ، وللهشى لم
أتنبه لأول وهلة الى أنى كنت ممسكا برقبة صديقى ميخائيل
وقد بتر منها رأسه ..

(١) بغدوين : هو بلدوين Baldwin الثانى الذى مات سنة ١١٣١ وكانت
تلك تسميته عند المسلمين ، واسامة نفسه فعل ذلك فى الاعتبار . وعندما تحدث
عن سلفه فى كتابه « لباب الالباب » أشار اليه بقوله : « بغدوين البرونس » ، بينما
كان يطلق على بوهيموند اسم ميمون ، وثمة واد فى نواحي أفامية أطلق عليه المسلمون
واد الميمون ، وفى الكامل بغدوين أيضا والد انشمنند بيمند .

وبكى ليث الدولة وانفعل الجميع سوى سلطان ، فقد قال
بهدهوء :

— لا مجال للدموع .. أكمل يا رجل !

— ناديت على الأسر عبثا ، وكنت اذ ذاك أخوض في دماء
العرب وجثثهم تحيط بى من كل جانب حيث رقدوا ، والأصوات
يامولاي .. الأصوات كانت لا تزال تدوى ، ولمحت من بعيد بعض
الخناجر تغلو وتهبط بدقة ، فقد كان لا يزال بعض جنودنا يقاوم .

— وأنت .. أنت ياليث الدولة ؟

— لا أرانى خجلا مما حدث ، فقد امتشقت سيفى واندفعت
الى امام وقتلت ثلاثة أو أربعة قبل أن أحاصر تماما ، وفي اللحظة
التي لامست فيها أطراف الحراب كل جزء في جسمى ارتفع
صوت « اتركوه للمقدم » ونظرت الى صاحب الصوت فاذا هو
اسحاق الحجام !

— اسحاق .. اسحاق الذى تجسس علينا ؟

— بسحنته الشيطانية وقد راح يتكلم كالمحموم « هو الوحيد
الباقى .. لماذا بقيت » ؟ وبينما كنت أقاد الى فسطاط القائد
علمت أن جنود بغدوين تجتاح مناطق حلب الشمالية ، وكان اسحاق
الحجام قد وصل فاطلعهم على أمرنا ، وهكذا ذبحنا ونحن نيام .

— هذا الملعون !

— وفتشنى الشياطين ، ونزعوا منى المصحف فدفعوه الى
مقدمهم ، ثم جررت الى خارج الفسطاط لأودع مركبا من مراكب
السجن . وكان النهار قد طلع فتمكنت من أن أرى الافرنج جماعات
يخترقون الوادى لينزعوا عن رفقائى الصرعى ملابسهم ويستولوا
على أسلحتهم وميرتهم .

— كم كان عدد هؤلاء الكفار ؟

— حوالى الألف تقريبا ..

— وماذا فعلوا بالقتلى ؟

لا أدري ، فقد طلبوا منى أن أبرح الوادى مسرعا اليك يامولاي .. قال لى اسحاق على لسان مقدمهم « لولا أننى أريد أن يتصل أحد بأمير شيزر لقتلتك بكونت جوسلان ، ولكن أعد هذا اليه » ودفع الى بالمصحف بينما كان يستطرد « انه كتابكم المقدس .. هه ؟ اذن قل لعمك اذا أردت أن تحفظ له قدسيته فسلم لنا شيزر فى أمد نهايته شهر نوفمبر من هذا العام » .

— أسر جوسلان فى شتنبر ويريدون شيزر فى دجمبر ، وقد مات ايلغارى فى نوفمبر كأنهم ظنوا أن الثمر حان قطافه .. ما اسم هذا المقدم ؟

— ربما كان فولك :

— فلاخرج اليه قبل أن ينقضى العام ..

وسرعان ما اتخذت الاجراءات للحرب ، وكانت الخطة تقضى بالاتصال أولا بنور الدولة بلك بن بهرام عند قلعة كركر الذى كان يحاصرها حينذاك فى الرها ، ومن ناحية أخرى يقود أسامة جماعات من فرسان شيزر لمناوشة الفرنج فى معرة النعمان وعزاز على أن يركز ضرباته على قلعة الحصن بأفامية ..

ويحكى أسامة فى مذكراته كيف قصد أفامية فى عشرين فارسا فقط ، وكانت أنباء بانتصارات بلدوين الثانى قد أخذت تنتشر انتشار النار فى الهشيم ، فلحق به قوم من النهابة نزل بهم حيث اعتاد أن ينزل كلما خرج لقتال افرنج انطاكية . وما ان تفرق أصحابه وسط المزارع حتى خرج عليهم فرسان الأفرنج فصجوا ضجعات عظيمة وارتيكوا ، الا أن أسامة صرخ فيهم ونظم صفوفهم واندفع الى أول فارس يتقدم صف الصليبيين وكان قدلقى عنه درعه وتخفف لتسهل عليه المراوغة .

كان فارسا عظيما ولكن أسامة ظهر عليه .. وأكبر الظن أن الإعداء لم يتوقعوا هذا الحدث المباغت فأدبروا بخيولهم ، فما أسرع ما لحق بهم أسامة وتحتة فرس أخضر مثل الطير . وقد لاحظ أن في المؤخرة فارسا على حصان مثل الجمل - فكهذا وصفه بنفسه - وكان بالدرع ولامة الحرب . كان يتأخر ، فظن أنه يريد أن يفاجئه فيكر عليه ، لكن هذا الفارس أخذ يضرب حصانه بمهمازيه ليسرع والحصان يبطيء ويلوح بذيله .

وفجأة استدار الحصان ، ووقع الصدام - وكان أسامة مستعدا تماما - فحمل على خصمه برمحه حملة أنفذت الرمح فيه قدر ذراع ، وخرج هو من السرج لخفة جسمه وقوة الطعنة وسرعة الفرس ، وعندما أخذ يجذب رمحه متراجعا كان زملاؤه قد لحقوا به بعد أن قضوا على معظم خصومهم .

ومع ذلك فلم يكن ظفري بالفارس كاملا ، وكادت مشيئة الله . بذلت مافي طاقتي وأحسننت الطعنة ، ورأني أحد غلماني فظن أني هالك فطار الى أبي وعمي فأمرت فارسا أن يلحق به أو يسبقه وقلت « تسرع الى شيزر وتعرف والدني بما جرى » ، لكن الغلام وصل أولا ..

— أي شيء لقيتم ؟

— يامولاي خرج علينا الافرنج في مئات وما اظن أحدا يسلم .

— والأمير ؟

— رأيته قد لبس وركب الخضراء و ...

ودخل الفارس في اللحظة المناسبة ووقف الأب على الحقيقة ، الا ان أسامة عندما رجع مظفرا بعد أيام قضاها متجولا في كفر طاب والمرة قال له أبوه :

— كان حقا أن نتكلم عما فعلته يا أبا المظفر ، ولكن ما فعله نور
الدولة بلك أولى بالكلام .

— وماذا فعل ؟

— أسر بقدوين الثانى نفسه (١) .

(١) ذكر أسامة ذلك في « الاعتبار » ويمكن مقابلة أحداث هذا الفصل
بما رواه ستيفنسون ووليم الصورى ، فلا نجد أى خلاف الا في تفصيلات
ثانوية .

(٨) بداية الجفوة

استطاع نور الدولة أن يخطف الابصار بعد ذلك - فقد غدا بطلا عظيما من أبطال التاريخ - لكن شاء أن يمنح شيزر بعض الحق في أن تذكر الى جانبه .

ذلك انه بعد أن أودع بلدوين الثاني حصن خرتبرت بديار بكر وثب على حلب فملكها ، في الوقت الذي خانه فيه بعض الأرمن فساعدوا أسراه على الاستيلاء على الحصن . وما بلغه النبأ حتى خف الى خرتبرت ليكتشف أن جوسلان تمكن من الهرب ، فنقل بلدوين الثاني الى حلب ، وشغل نفسه بعد ذلك بمعارك وضعت حداً لحياته في مايو من عام ١١٢٤ تاركاً حلب لتمرناش ابن المغارى .

واذ يرى تمرناش أنه لا قبل له بمواجهة الفرنج كما كان يفعل نور الدولة يبعث الى أبى العساكر سلطان يستشيره في الأمر ، وكان اذ ذاك في أسوأ حالاته - لأن زوجه وضعت بنتا في حين أنجب السامعة عضد الدين مرهفا - فاقترح المفاوضة من أجل صلح يأخذ على عاتقه اقراره . قد بدأ يتصل بالفرنج واتفق معهم على اطلاق سراح بلدوين الثانى بشرط أن يتنازل لتمرناش عن الأثارب وكفر طاب وعزاز ، ويدفع له بثمانية آلاف دينار فدية يعجل منها بعشرين ألفا .

ولقد بلغ تحمس سلطان للصلح الذى وافق بلدوين الثانى على

شروطه أن رهن أولاد اخوته - ومن بينهم أسامة - لدى تمرتاش ، فساروا الى حلب على أن يبعث اليه ببلدوين الثاني . ولما وصل هذا الى شيزر أكرم سلطان وأخوه وفادته على ما يصرح به أسامة في مذكراته ، وأبقياه حتى قدمت ابنته وابن جوسلان وعشرة آخرون من كبار الفرنج بقوا رهائن في القلعة ، ففكا قيوده وأطلقاه . غير أنه لما وصل الى أنطاكية نقض عهده بحجة أنه لا يملك التنازل عن أملاكه في الأصل لصاحب أنطاكية ، فوجد أسامة نفسه - بذلك - سجيناً لا يجد بارقة أمل واحدة بعد أن رفض تمرتاش مناقشة الأمر معه أو مع أى مسئول من بنى منقذ .

وكان لابد أن تهيج نفسه ويتساءل أكان عمه محقاً فيما أقدم عليه ؟ أما أخواه أبو عبد الله محمد بن مرشد وأبو الحسن على ابن مرشد فقد حملا عمهما التبعة كاملة ، وأما ابنا عمه ذخيرة الدولة أبو القنا خطام وليث الدولة يحيى بن مالك فقد أشركا عمهما مرشدا . واختلف سائر الأمراء المنقذين بين هذين الرأيين ، إلا أن أحدا لم يكن في مثل ثورة أسامة وحنقه ، وعبثاً وجد وسيلة واحدة للفرار .

وبين المطارحات الشعرية - فقد كان بنو منقذ كلهم شعراء - والكلام في الجهاد المقدس مضت سبعة شهور أو ثمانية ، وقعت خلالها أحداث انتهت باستيلاء قسيم الدولة آقسنقر السلجوقي أتابك الموصل على حلب ، فأطلق سراح المعتقلين ، ورجع أسامة الى شيزر وهو ينشد :

حبسوك والطير النواطق انما

حبست لميزتها على الأنداد

وتهيبوك وأنت مودع سجنهم

وكذا السيوف تهاب في الأغمد

ما الحبس دار مهانة لذوى العلا

لكنه كالفيل للأسناد

وسمع عمه الشعر فامتعض ، لكنه لم ينح عليه باللوم لسببين :
 أولهما أن إحدى نسائه وضعت له مولودا ذكرا ، وثانيهما أن
 القتال احتدم بين أنطاكية وشيزر الى درجة من العنف احتاج
 بنو منقذ الى خبرة أسامة لكبحها ، وكان على أنطاكية اذ ذلك
 أميرها بوهيموند الثانى الذى أراد فيما يبدو أن يثأر من سلطان
 الله سلم قسيم الدولة الاثنى عشر افرنجيا فباعهم بالمبلغ
 المستحق على بلدوين الثانى وهو ثمانون ألف دينار .

وكانت ثمة هدنة بين حماة وشيزر فأرسل شهاب الدين
 محمود بن قراجا - بتكليف من قسيم الدولة - الى سلطان يقول
 « تأمر أسامة يلقاني هو وفارس واحد فى كرعة نبصر موضعا
 نكمن فيه لأفامية وثقاتلها » (١) وقد كان ، فاجتمع عسكرنا
 وعسكره فلقينا فارس الفرنج فى الخراب الذى لأفامية - وكانت
 فيه قلعة المضيق - فعجزنا عن قلع الافرنج من ذلك المكان ،
 فقال لى رجل من جندنا :

— تريد تكسرهم ؟

قلت :

— نعم

قال :

— أقصد بنا باب الحصن ..

قلت :

— سيروا !

(١) تلك كانت عبارة ابن قراجا على ما أثبتتها أسامة فى الاعتبار ، ولكن
 لم نعثرا على « كرعة » الا فى هذا الموضع ، ولعلها اسم موضع بعينه .

وندم القائل ، وعلم أنهم يدوسوننا ويجوزون الى حصنهم ،
فأراد أن يردنى ، فأبيت ، وقصدت باب الحصن . وساعة مارأنا
الفرنچ قاصدين الباب عاد الينا فارسهم وراجلهم فداسوننا
وجازوا ، ثم ترجل الفرسان داخل باب الحصن ، وأطلعوا خيلهم
الى الحصن وصفوا عوالى قنطارياتهم فى البساب وأنا ورافع
ابن سوتكين واقفان تحت السور مقابل الباب وعلينا شئ كثير
من الحجارة والنشاب ، وشهاب الدين واقف فى موكب بعيد على
خوف من الأكراد . فقد طعن حارثة النميرى - نسيب جمعة -
فى صدر فرسه طعنة معترضة وشهاب لا يزال بمعزل عن القتال .

ومن خلال البردى والأثل والحشائش العريضة والكهوف
والأخاديد جاء اليه سهم من الحصن فأصابه فى جانب عظم زنده ،
فما دخل فى عظم زنده مقدار طول شعيرة ، فجاءنى رسول من
عنده يقول :

- لا تزل مكانك حتى تجمع الناس الذين تفرقوا فى البلد ،
فأنا قد جرحت وكأنى أحسن الجرح فى قلبى ، وأنا راجع
فأحفظ أنت العسكر .

ومضى ورجعت أنا الى الناس ونزلت على برج خريية ، وكان
الافرنج لهم عليه ديدبان يكشفنا اذا أردنا التقدم ، لكننا تمكنا
منه ، وملكناه . ثم رأيت أن أعود بعد أن فعلنا ما أردنا ، فوصلت
العصر الى شيزر ، وشهاب الدين فى دار والدى يريد أن يحل
جرجه ويداويه ، ولكن عمى منعه وقال :

- والله ما تحل جرحك الا فى دارك .

قال :

- أنا فى دار والدى .

- قال عمى :

— اذا وصلت دارك وبرأ جرحك فدار والدك بحكمك .
فركب وسار الى حماة ، فأقام الغد وبعد الغد ، ثم اسودت
يده وغاب عن رشده ، ومات وما كان به الا فراغ الأجل .

وانه ليتمثله — وقد كان في نظره نمرا كبيرا — وهو يحاوره
عندما بلغه أنه لم يحاول أن يفدر بثمانية فرسان من الفرنج ،
ونبههم قبل أن يقضى عليهم بصديق واحد كان معه .

— لم اكن أعرف يا أبا المظفر أن تلك شهامتك .

— مادمت قادرا فانى أضرب الضربة القاتلة .

— انى موافقك لكن ألا تكون الضربة أكثر نفاذا اذا جاءت من
الخلف ؟

— ذلك والله غدر لا أرتضيه .

— ان كان فياضيعتى هنا !

— أتريد أن تنكص على عقبيك ايها الأمير فلا تحارب ؟

— أنا أحب العسكر أقوده للحرب فينتصر ، لكن اعجابى يكون
أكبر وأنا أشهد من على شاكلتك فى الساحة .

— لقد سئمت عراك الساحات وأريد أن أحارب الشياطين
ليخلوا أرضنا .

— هذا عن نفسك وأما عن نفسى فلا أحب المجازر .

ولقد أفضى أسامة بهذا الحديث لعمه فما وجده مصفيا ،
وكان العم اذ ذاك يكره نفسه على أن يصفو له ، وبينما ينقب فى
ماضيه — وهو الذى اعتاد أن يكل اليه كثيرا من أموره الشخصية
يقضيها له — عما ينم على اساءة أو تقصير فيعاتبه ، وبدت صفحات
مشرفة بلغ فيها مكانة لا يعلو اليها أحد . وحسبه أن ما سنه فى

ميادين الحرب أصبح قاعدة تتبع في كل جيوش العصر ، ومن بينها جيوش الافرنج . فقد جعل القوس المصلبة والدرع الثقيلة في نفس المستوى من الأهمية مع أهمية القنطارية التي يضرب بها الفارس المتقدم ، وحرص على أن يضع المجيدون والأبطال شارات تميزهم عن غيرهم . ولم يكن يجد ضيرا في أن يضرب ليلا ، ويعمد الى اصدار الأوامر بشعلات النار ، مع استغلال النقارة اذا كان جنوده في موضع واحد . وأما رايته فقد كانت تحمل علامة النسر ذي الرأسين وكان يذكر أنه نقله من نقش سومري قديم .

وكان للحشاشين من الاسماعيلية منظمات للمقاومة تتدرج في سلم المرتبة من الرفقاء والفدائيين واللققاء ، ويتبعون مباشرة شيخ الجبل (١) ولهم زيهم وعلامتهم ، ولما كان من أهداف تلك المنظمات ضرب الحركات البانية في العالم الاسلامي فقد وضع لمقاومتها منظمة « الفتوة » وجعل من أهدافها تدمير استحكامات الافرنج بعد أن توسعوا في اقامة القلاع والحصون في الأيام الأخيرة . ودعا المبتدئ فيها بالرفيق ، ولا يتدرج في سلم الترقية حتى يكون فدائيا ففارسا الا بعد اختبارات ومعارك عنيفة معقدة .

هكذا كان وليس ينبغي أن يقابل بالجحود ونكران الجميل ، ولكن شعورا بالحسد يجتاحه في كل حين ، وطالما أطلق العنان لهواجسه وقد أصبح له من الذكور اثنان يستقطبان مشاعر الحنان التي كان يوليها له . ولم يعد بقادر على أن يخفى أن من بين الظروف التي حملته على أن يجفوه - وقد كان هذا بعيدا عن ذهنه منذ كان بلا عقب - الأثر الذي يتركه أسامة في كل شيء حتى الملبس والمطعم .

(١) من أخطر شيوخ الجبل من الحشاشية راشد الدين سنان ، وقد شغل هذا المنصب مدى ثلاثين عاما من سنة ١١٦٢ ، وكان رجاله هم الذين قاموا بمحاولتين خائبتين للقضاء على صلاح الدين الأيوبي .

واذ يفتح اباه مرشدا في الأمر ينصحه بأن يدع للخالق كل
تصريف والا فمن الخطر مراجعته ، لأنه لا يريد أن يتعرض ثانية
لمحنة سنة ١١٢٠ ، وأما أمه فترفض أن تفصح عن رأيها في حين
تتبرع جدته بقوله :

— ولداه أولى منك بقلبه يا أسامة .

وبتقييد حركات العم ورصد خطواته ، انتهى أسامة الى
ضرورة البحث عن بديل . غير أن عناده المتأصل فيه أركبه الصعب
حتى بدا أحيانا في نظر بعض المقربين اليه أنه يبعد — بأفعاله —
يوما بعد يوم عما يجب أن يوصف به من رزانة وزكانة .

لم يتطلع قط الى راحة طويلة ، ورفض نهائيا الدعة
والاستقرار . فقد اعتاد أن ينام وهو قاعد ، وكثيرا ما تناول
طعامه وهو يجوس بجواده خلال مزرعته ، ويحلو له وهو يبارى
أحد أبناء أعمامه بالشطرنج أن ينشد من أشعاره وأشعار غيره
ما يكلفه الوقوف ساعة أو أكثر . ولقد تعجبه احدى جوارى
القصر — وهو المتزوج — فிடاعها حتى تظن أنه يريد الإيقاع بها ،
ولكنه سرعان ما يتحول الى أخرى ليؤدي معها الدور نفسه ،
ولهذا قيل ان مؤيد الدولة لا تؤيده امرأة !

ومن ناحية أخرى واجه النمر — وكان عمه يرى أن في صيده
جسارة لا تكون في صيد غيره — وقد روع أهالى قرية معرZF التى
تقع جنوبى شيزر وعجز عمه عز الدين عن الإيقاع به ، وتمكن هو من
أن يقضى عليه برغم أنه كان يشب في الهواء أمامه الى أربعين ذراعا .
وعندما أخبره جوبان الخيل — أى السائس — أن فى أجمة تل
التلول ثلاثة سباع خرج اليها فى ثلة من الفرسان وصحبه أخوه
الثالث منقذ ، وقد استقبلتهم لبوة هائجة تصدى لها منقذ فرماها
برمح انكسر فيها فصرعت . وبعد قليل ظهر أسد جفلت منه

الخيول فعدت وعدا هو خلفها ، وانتظرت أنا وأخى لأننا كنا نعلم أن الأسد اذا خرج من موضع فلا بد من أن يرجع اليه .

غير أن وصوله عندنا صادف وصول بعض رفاقنا وفيهم مقاتل اسمه سعد الله الشيباني ، وكالريخ عبر علينا فضرب في طريقه فرس الشيباني ورماه ، فتمكنت منه برمحي فجندل . وأما الأسد الثالث فقد كنا ساعة لقائه نحو عشرين من الرماة أخذنا نرميه بالنشاب ، وأنا معارض الأرض أنتظره يحمل عليهم فاطعنه . وكان كلما وقعت فيه نشابة زار وهز ذيله فأقول « الآن سيهجم » لكنه لا يفعل ويعود الى السير والمراوغة والزئير حتى وقع ميتا .

وكل الذى قاله عمه تعليقا على هذه الواقعة :

— أيش صيد السباع ؟ لكنه هذا الأسد الثالث كان كشهاب الدين .

ولم يدر العم أنه انتهك حرمة ميت ، فلما جلسوا للسمر لم تكن مشاهداته تنصب الا عليه ، وانتهى الى أن ذلك الرجل السمين الفياض حركة والمفعم بالنشاط أكثر بنى منقذ اثرة . حتى اذا كان بعد ذلك بأيام ودخل القلعة يحمل له رفقاؤه جثة أسد جندله برمحه قرر أن يفض يديه منه ، فقد قالت له جدته العجوز :

— يا بنى أيش يحملك على هذه المصائب التى تخاطر فيها بنفسك وبمحضاتك وتكسر سلاحك ويزداد قلب عمك وحشة منك ونفورا ؟

فقال :

— يا ستى انما أخطر بنفسى فى هذا ومثله لأتقرب الى قلبه .

فقالت :

والله ما يقربك هذا منه وانه ليزيدك منه بعدا !

(٩)

نهاية صراع

أجمع الاخوة الأربعة أبو المفيث منقذ وأبو عبد الله محمد وأبو الحسن على وأبو المظفر أسامة ، على أن عمهم قرر فصم كل عروة تربطه بهم . وبدت تلك القطيعة لهم مرتكزة على فكرة بات وأصبح يدين بها في أعماق نفسه ، ولم لا ؟ أليس هو القائل بعد أن قرأ كتابه « الشيب والشباب » الذي وضعه مؤخرا وأهداه لأبيه مرشد :

— ينبغي لكل من يود أن يكون كريما على نفسه أن لا ينتظر حتى يبيض شعر الهامة .

ولما سمعه يشكو في بعض شعره وقرر أنه تعلم النفاق ل يبدو جذلا طلق الوجه ، وذلك في قوله :

نافقت دهري فوجهي ضاحك جذل
طلق وقلبي كئيب مكمد باك
وراحة القلب في الشكوى ولذتها
لو أمكنت لا تساوى ذلة الشاكي

قال له وهو يضحك فيما يشبه السخرية :

— ألم أسمعك يوما تقول راحة القلب في الطعان أو ما يشبه ذلك ؟

وما لبث أن طالع أهله بأن دور القلعة تضيق ببني منقذ ،

ولولا بقية من حياء ووجود الخاتون أمه - وكانت حازمة شديدة عليه - لأمر بأولاد مرشد من دون كل اخوته أن يلزموا ضياعهم ويسكنوا الى بيوتهم فيها . فهو يرى الهوة بينه وبينهم بعيدة حتى يتعذر تضيق المسافة وتقريب الشقة ، الا أن تتابع الأحداث كان يلزمه الاقرار بدورهم ، وبخاصة دور أسامة الذى لولا اصراره وعناده وبراعته العسكرية لأطيح باستحكامات شيزر ولسقطت في أيدي الطامعين .

وفي ذلك اليوم او في أحد أيام سنة ١١٢٧ انتهوا في لقاء بينهم الى أن يبدأ أسامة بطلب النقلة الى ضيعته ، فاذا وافق سلطان - ولا شك سيوافق - طلب الاخوة الآخرون الطلب نفسه ، فحفظوا للقلعة تلك الروح الطيبة التى طالما رفرت بالعطف وخفقت بالتسامح فوق جميع المنقذين ، لا سيما فى مثل تلك الظروف الصعبة التى يمرون بها وتتطلب منهم تضافر الجهود وتكافل القوى .

لكن غزاة حماة - وعلى رأسهم سرهنك وغازى التلى وفارس ابن زمام ومحمود بن بلدأخى - أجبروهم على التريث شيئا ، ولم يشعر أسامة الا وهو فى اسروج ومعه اخوته وأولاد عمه مالك وقلة من المقاتلة ، وفجأة قدم عليه بعض جنده وقال له :

- انهم كمنوا لنا كميناً وأخاف ان حملنا عليهم ضربة رجل واحد هلكنا .

فقال :

- أحبس عنى اخوتى وبنى عمى حتى أردهم .

فصرخ بأعلى صوته :

- يا آل منقذ دعوا هذا يرد المغيرين ولا تتبعوه والا أكلوكم .
وخرجت أناقل حصانى فتقهقروا ، ثم خرج كمينهم فجأة وأنا

على مبعدة من أصحابي ، فكان على أن أحمل عليهم ليتمكن جنودنا من الابتعاد .

وبرز ابن عمي يحيى فبرز فارس بن زمام - وهو عربي - مبادرا الى أعقاب عساكرنا ، فتصدى له يحيى برمحه طاعنا اياه طعنة أوقعته عن حصانه ، وسمعت أنا قعقة الرمح ، فقلت مات . واندفعت أذود ، وأطعن حتى قلعتهم ، وأمن مقاتلتى .

ولم يشأ عندما رجع الى القلعة أن يقف صاحب القلعة على ما وقع ، واكتفى بتقديم تقرير شفوى لكاتب الديوان ، ثم طلب الى شاعره أبى فراس العامرى .

- وكان أبوه يحبه أيضا - أن يشيد فى مدحته الجديدة بحسن تدبيره على رهطه .

وقبل أن يمر أسبوع واحد ساق نهاية حماة قطعة أبقار من شيزر وحبسوها فى جزيرة تحت الطاحون الجلالى ، فخرج أسامة بجمعة النميرى ومولاه شجاع الدولة على أن تلحق به ثلة من الفرسان ، ولم يكن قد انقضى يوم على لقائه بكتيبة افرنجية وثبت على شيزر . فكادت الدائرة تدور عليه حينما هرب أصحابه ومن بينهم محمود بن جمعة ، وبالمناسبة حمل عليه أبوه حملة شعواء حتى اضطر أسامة الى أن يقول له :

- وحياتك يا أبا محمود أما تنهزم انت عنى ؟

فقال :

- والله ان موتى أسهل على من أن أنهزم عنك .

ان الفيظ كان يدفعه دفعا ، وود بجذع الأنف أن يعلم ماذا

تريد حماة منهم وقد رغب ظهير الدين طفتكين الأتابك (١) أن تجمع الأيدي معا في وجه أنطاكية ، وكانت أخبار عماد الدين بن آقسنقر أتابك الموصل تشجع على قيام هذا الاتحاد ، غير أن الامارات الاسلامية - فيما يبدو - لم تكن جادة فيما تدعيه من جمع الكلمة ووحدة الصف .

وتفقد أسامة الموضع ، ثم قال لرفيقه :

- يجب أن نعبر الماء لنصل الى الطاحون فنسترد الدواب .

لابد أن ننتهى معهم الى شيء ، ولا بد أيضا أن يفهموا أنه مادام في شيزر فكل ما فيها محرم عليهم . واقتربنا من الماء فأصابنا نشابة جواد شجاع الدولة فما شعرت الا وهو يخب الى عساكرنا ، بينما اتجهت نحوى نشابة أخرى فتلقيتها برقبة فرسى فجازت فيها قدر شبر ووالله ما جمحت ولا قلقنت ولا كأنها أحست بالجرح . وأما جمعة النمرى فقد أثر العافية ، وانفلت موليا ، ثم رجع بالفرسان كارين على فارسهم وراجلهم فدفعوهم دفعا حتى استنقذنا الدواب وفي بعض الطريق قلت لجمعة :

- يا أبا محمود تلوم ابنك لأنه ينهزم عنى وتخذلنى أنت ؟

فقال :

- والله ما خفت الا على الفرس فانها تعز على !

(١) الأتابك : أتابك لفظه تركية معناها « والد » و « بك » معناها « أمير » والأتابكة في التاريخ كانوا بادىء ذى بدء أوصياء على صغار أمراء السلاجقة أو مؤديين ، ثم خلفوهم في السلطة وأما ظهير الدين صاحب دمشق فقد كان معلوكا لتاج الدولة بن الب أرسلان السلجوقى ومات سنة ١١٢٧/٥٢٢ - يحسن مراجعة الروضتين في أخبار الدولتين لأبى شامة ١ : ٢٤ ط . القاهرة سنة ١٢٨٧ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٥ : ٢٣٤ ط . دار الكتب سنة ١٩٣٥ وابن الأثير ٨ : ٣٢٧ .

ثم استجاب الطرفان لنداء السلام ، وتعين على أسامة أن يترك القلعة على أن يلبي نداء عمه ما تعرضت شيزر لاي خطر . ولم يبد عمه سلطان أى اعتراض وان أظهر أسفه فضاغت ذلك اللائمة التى كانت تقع عليه ، بينما استسلم الآخرون استسلاما لا يدع مجالا للشك فى أن أسامة كان كنزهم الذى فقدوه .

وفى غمار تلك الحوادث - وكان عام ١١٢٨ قد انتصف - يزحف عماد الدين بعد امتلاكه نصيبين وسنجار وحران (١) على حلب ويستولى عليها ، ثم يفكر فى غزو دمشق التى احتسبت أميرها طفتكين بن بورى واستقبلت ابنه تاج الملوك بورى (٢) ، فراح يشن حملات ضارية على الحشاشية يساعده فيها أخوه شهاب الدين محمود بن طفتكين .

(١) تقع هذه المدن الثلاث فى شمالى العراق ، أما سنجار فالى الشمال الغربى من الموصل ، وشمالها توجد نصيبين شهيرة العتاقة والقدم ، وأما حران البلد الذى اشتق من اسمه هواؤه ولا يآلف البرد ماؤه فغربى نصيبين على مبعده وتنسب لآبراهيم الخليل ..

(٢) لربط الأحداث بعضها ببعض ينبغى ان نذكر هنا أن تاج الملوك بورى مات فى سنة ٥٢٦/١١٣١ ، أى فى المصاف الذى حضره أسامة فى تكريت مع عماد الدين زنكى ، وخلفه ولده شمس الملوك اسماعيل الذى فتح بانياس من يد الأفرنج ولم يشكره أحد لفساد خلقه وبخله - واجع النجوم الزاهرة ٥ : ٢٤٩ ، ٢٥٠ وكذلك تاريخ أبى الفداء ٣ : ٦ وتاريخ ابن الأثير ٨ : ٣٢٧ وأسامة بن منقذ الطاهر النعمانى ١٩ ، ٢٠ ط . الوطنية بحماسة سنة ١٩٢٩ .

الخروج

طوال الشهور القليلة التى قضاها مع زوجته وولده وغلمايه فى مزرعته - وقد انقطع فيها عن التردد على القلعة - انتهى الى أن بوادر التوحيد بين المسلمين أخذت بظهور عماد الدين فى الإعلان عن نفسها ، ولم يتردد قط فى أن يعترف بينه وبين نفسه بأن هذا الرجل أحق عمال الخليفة بالحكم .

واعتاد أن يزوره اخوته وبعض اقربائه الذين يعتقدون أنفسهم تلامذة له ، ونفر من أعضاء الفتوة والفرسان الذين يتوددون اليه ويرغبون فى منازلته استكمالا لتدريبهم . ولم يكن يخوض مع أحد من هؤلاء فى شئ عن صاحب شيزر ، ويؤثر أحيانا أن يخرج معهم لصيد الفزلان والطيور والأرانب واليحامير عادلا عن القنص العنيف ايثارا للراحة .

وفى ساعات الفراغ يروح يقرأ فيما جمع من كتب كانت مشاغله العسكرية تدفعه عنها دفعا ، ودبج قصيدتين أو ثلاثا ، كما علق على كتاب « البديع » الذى ألفه ابن المعتز ، وقال لمولاه شجاع الدولة :

- اجمع لى من بين الكتب المرصوفة العمدة لابن رشيق والصناعتين للعسكري واللمع للعجمي ونقد الشعر لقدامة والحالى والعاطل للحاتمي فانى أزمع جمع ما تفرق فى هذه الكتب من نقد الشعر .

ورفع كتاب ابن المعتز بين يديه وقلبه ثم قال :

— كان مؤلف هذا الكتاب أميرا عظيما ولكن أهله ضيعوه !

ويتابع ابنه الذى حباه الله به يعدو فى الظلمات الدوانى فيحس ملئه رضى وقناعة لا يرجو عليهما مزيدا ، وبخيل اليه أحيانا أنه ضيع أكثر من ثلاثين عاما دون أن يعرف لذة الاستقرار . ولقد بدا له بعد أن يستوفى حقه من الراحة أن يخرج فى رحلة طويلة ، يزور فيها القاهرة وبغداد ومكة وبعض عواصم الأقاليم وبعد ذلك يشرع فى الاتصال بعلماء الدين قصد العمل لديه .

وكان من الممكن أن يجرى كل شئ على ذلك النحو الذى ارتآه ، ولكن أمورا وقعت ذات يوم — ولم يكن اتخذ لها أهبة — غيرت الكثير لتجعله يقول بين الحين والآخر :

— قد يملك المرء أن يقول انه يفعل ما يريد ولكن هل يفتن الى العبالة التى ينصبها له القدر ؟

استقبل صباحه كعادته مصليا وذلك قبل أن يتناول طعام الافطار ، ثم طارحا مرارة تحاول فى بعض الأحيان أن يشرق بها حلقة ، وخارجا على ظهر جواده فى رفقة شجاع الدولة لتفقد أحوال المزرعة . وانه لفى طريقه اذا أحد أشقائه يهل عليه ، فيسأله :

— ما وراءك يا على ؟

فيجيب :

— عساكر عماد الدين فى طريقها إلينا ؟

فيصرخ وهو غير مصدق :

— ماذا تقول ؟

فيجيب :

— لقد قرر أتاك الموصل امتلاك الشام .

وتشتعل الدماء في عروق أسامة ، فما برح القدر يجرى على ما قدر ، ويمضى الأمر الى الغاية التي يراها اليق بالامة واجدر . وهكذا لا سبيل الى القول ان أيام الدهر التي هي دول بين الورى دالت عنا ، وانما قيل اذا رأيت المرء يكثّر من التعجب مما يرى في حياته ويسمع فذلك لسهوه عما مرت به عليه الليالى ، واذن ينبغى أن لا نضيع الفرصة بل نقبل على هذا الشيء الجديد ما كان تبصرة بصالح عمل وأى عمل صالح أكبر من لم الشمل .

فما العمل ؟

ان السياسة تقتضيه أن يكون ناصحا لآله ، ولكن هل يقبل عمه الا أن يعتده بالنصيحة لثيما ؟ وانه والله لا يعمل الا بقول من قال اذا عرف الملك من الرجل أنه قد ساواه في الرأى والزكّانة والهيبة والتبع فليصرعه والا كان هو المصروع . ومع ذلك فان النصيحة مطلوبة لأنها حق ، ولا بد من احقاق الحق . وقد أخبرنى الشيخ الصالح أبو الحسن على بن سالم بن الأعز على السنبسى رحمه الله مرفوعا الى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان امرأتين أتتا النبی فيما یرى ، واحدة علیها ثياب خضر ، والأخرى علیها ثياب صفر . واحدة تتكلم والأخرى لا تتكلم ، كلتاهما من أهل الجنة ، قال : تتكلمين وهذه لا تتكلم ؟ قالت : أنا اذ مت أوصيت وهذه ماتت بغير وصية فهى لا تتكلم الا يوم القيامة » ووصية الأحياء للأحياء أدب وأمر بمعروف ونهى عن منكر وتحذير من زلل .

يجب أن يقصد الى عمه ويقول له لا تكن حربا على عماد الدين ، ومعنى هذا .. معنى هذا أن شيزر لا تكون لبنى منقذ ، وهذا أمر فظيع ، ومن الصعب أو من المحال قبوله ، كلا .. لن يذهب ، فان شيزر عزيزة عليه واذن فيم دعوته الى جمع الكلمة والجهاد تحت راية حاكم واحد قوى ، الآن آمن أن ما يذهب اليه

لا يجرى مجرى الدم في عروقه ، والا فقد كان عليه أن يقول :
ليفعل مادام في ذلك خلاصنا !

لقد استشعر فجأة أنه الضعيف المهزول أمام جبار يوشك أن
يمد في وجهه قبضة باطشة ، وبدل أن يستوضح جلية الأمر على
ما اعتاد في أى موقف آخر أحس ازدياد شديدا للحياة ، حتى اذا
تنبه الى جماعة من فرسان الافرنج يطنون بخيولهم أرضه كان
في أسوأ حالاته النفسية فصرخ :

— ماذا جاء بكم الى هنا ايها الشياطين ؟

كان بينهم سيدة ، وفارسان جذبا اهتمامه . اما الأول فقد
كان يرتدى ملابس موشاة بالذهب ، وأما الآخر فقد كان مسلما
ولعله من النصرانية لأنه كان يضع عمامة الحشاشين التي حاول أن
يسترها بالكوفية . وأعاد أسامة السؤال وهو لا يتوقع أن يجيب
أحد منهم ، الا أن مدار بينهم دفعه الى الاعتقاد بأن الفارس
ذا الملابس المذهبة أحد أمراء الصليبيين ، فقد دارت كلمة «برونس»
على لسان السيدة والفارس النصرى .

— سنجتاز طريقنا من هنا لأنه اقرب ..

وكان المتكلم هو النصرى ، وقد تأكد منه أسامة الآن ، فقال له
بغضب :

— قل لسيدك والبرونس خذ الداما من أرضى واخرج بها
سالمًا .

ونقل النصرى عبارة أسامة لتضرج وجهه الأبيض بالدم ،
وامتدت يده الى خاصرته ، وهنا قال النصرى :

— مادمت عرفت أنه أمير فلا تعترض طريقه .

قال أسامة في تحد :

— ليخرج من أرضي وليدر حول التل بخيوله .
وتململ الافرنج ، في حين ابتعدت السيدة ، ورفع النصيري
عن رأسه الكوفية وقال وعيناه تقدحان بالشرر :

— تنح عنا أيها ... أيها ...

فعالجه أسامة قائلا :

— انك تبحث عن كلمة أوصف بها اليس كذلك ؟
قال النصيري وقد رمى بعباءته الى حيث كانت الكوفية
على الأرض :

— أى شيطان أنت ؟

فتضاحك أسامة وقال :

— يا هذا الذى تبغينا أراك تتكلم فلا تبين وتريد الوصف
فتعميك اللغة .. ماذا تريد ؟ ان كان يسعفك الحظ فانقل لسيدك
ما أقوله فانى لن أجهز عليك الا بعد ان ألقنك من ضروب الكلام
ما يليق بوصفى .. فان أردت لهجة المهاجم المغوار وأنت أحد
رفقاء الباطنية قلت لى أيها الجبان الرعيد ، وان شئت ان
تنصحنى وتلاطفنى قلت أيها المتودد الرقيق ، واذا قصدت مجرد
الوصف قلت : يا رجل ، فان حقرتنى عدلت الى يا هذا ، فلو
شئت الاشادة قلت ياذا الأصل العتيق ، الا أن تكون رمت التعجب
فقلت أيها الفذ الأوحده .. فان عمدت الى لغة التمثيل قلت يامن
تقف كمبتغى الصيد فى عريسة الأسد ، وفى باب تشبيهات العامة
تقول يا أبهى من القمرين ، وفى لغة العسكريين لا تجد أفضل من
ياصمصامة عمرو .. فهذا وأمثاله أيها الباطنى الخليع كان جائزا
ان تعرفه لو كنت تأخذ بعيشنا ، أما وأنت مع هؤلاء وهم مثلك
لا يعرفون لغتنا فانى معلمك ثلاثة أحرف أخصك بها ولك ان تخلعها
عليهم فى أى وقت تريد ، وهى الباء والفاء واللام ، فان جمعتهما

على هذا الترتيب كانت الصفة التى تليق بك وهى « بغل »
وكان الفارس الأمير قد نفذ صبره تماما ، فصرخ فى وجه
النصيرى :

— قل له أنى الأمير فولك بن فولك الرابع .

فقال أسامة :

— يخيل الى انى سمعت هذا الاسم ، على أنى أنا أسامة
ابن منقذ .

وعلى الفور تهقر النصيرى وقد دلت ملامح وجهه على الجزع
فى حين قال فولك بتأفف :

— لم أسمع بهذا الاسم .

فطلب أسامة من النصيرى أن يقول له :

— والآن سمعته هلم اذن .

قال فولك :

— الى أين ؟

فقال أسامة وهو يضع يده على سيفه :

— الى حيث ينقل لك سيفى ما عجز عن نقله لسانى .

فقال فولك وهو يمتشق حمامه برغم تحذير النصيرى له :

— كلام شاعر وضعيع !

فقال أسامة وهو يندفع نحوه بسيفه :

— أنقل له عنى مادام اشتراك بنفسه ليموت ، أما أننى شاعر

فهذا صحيح وقد ترك لك الوضاعة ترتع فيها وتنعم ..

حسنا ، ومنى كشاعر يا فولك يابن فولك أعطيك الدرس

الأول حتى أصل إلى العبد الذي وصله أبوك في سلم
الإمارة .. حسنا ، أطلب منك أن تصلى لربك لأنى عند
العدد الرابع أكون قد وصلت إلى قلبك فتستحق قول
من يقول « يرحمه الله ، فقد وقع في حباله ابن منقذ » .
وناوشه بالسيف ليختبره فوجده شديد المراس ، إلا أنه مضى
في مداعبته فقال :

— قل له أيها النصيرى هذا هو الدرس الأول ، الشعر صناعة
مادتها المعانى وصورتها اللفظة وعناصر تكوينها الوزن
والقافية .

وانقض عليه وخط بسيفه على كتفه ، فقد قدة واحدة ،
تراجع بعدها إلى الراء ليرجم النصيرى ، ثم استطرد :

— هكذا يجب أن نصبر على العلم ، وأما الدرس الثانى فاعلم
أن محاسن الشعر ثلاثة : التطبيق والتجيس والمقابلة ،
على أن تعرف أن محاسن المعانى ثلاثة أيضا هى : الاستعارة
والتشبيه والمثل .

وعاد فانقض عليه وشق على كتفه الثانى شقين دون أن يمس
جلده ، فكاد سيفه يسقط من يده ، وانتظر أسامة قليلا ثم
استأنف المباراة قائلا :

— وأما الدرس الثالث فهو أنه لما كان الشعر على ما قلناه
حتى انه ليسخى البخيل ويشجع الجبان ويفرج الهموم
ويرضى الغضبان قالوا : الشعر أنفذ من السحر !

ووثب نحوه فشق رداءه من فوق ثديه الأيمن ثلاثة شقوق
طويلة ، وهنا صرخت السيدة ملقية بنفسها بين ذراعى أسامة
وجسدها كله يرتعد ، فدفعها برفق وقال لأخيه ضاحكا :

— أرايت يا أبا الحسن ؟

ثم اتجه الى فولك متظاهرا بالأسى :

— يبدو ايها البرونس أننا مضطرون الى تأجيل بقية
الدرس ، لكن عليك أن تنصح الداما بالألا تلقى بنفسها على الرجال !

ولم يشق على فولك بعد ذلك أن يغمد سيفه ، بل ربما
حمد الله أن هيات هذه المرأة فرصة النجاة له .. فامتطى جواده
ولوح لرفاقه أن يتبعوه الى خارج البستان في اتجاه الجبل ،
واذ ذاك اندفع أبو الحسن الى أخيه المنطلق الوجه وقال له :

— والآن نكمل حديثنا فالى أين انتهينا به ؟

فقال أسامة :

— الى أن عماد الدين قرر امتلاك الشام ..

قال على :

— يبقى الأهم فحدس ما يكون ..

فقال أسامة :

— يدعوني أبو العساكر ؟

قال على :

— بل الأتابك عماد الدين ..

فقال أسامة :

— ماذا ؟

فأجاب :

— أخطرنا بأنه سينزل ضيفا علينا على أن يصحبك معه

في جيشه ..

وما كان له الا أن يتخلى عن مخاوفه ، وأصبح أمامه أن
عماد الدين الذى يلهب خياله بغزواته الموفقة يفتح أمامه الطريق

الحقيقي للمجد . انه حتى تلك اللحظة قائد جيش صغير ، أو هكذا كان قبل أن ينسلخ من القلعة ، ومهما يكن كل ما بذله من ضروب الشجاعة رائعا فليس يقاس بما يحدث في المعارك واسعة النطاق التي يصل فيها الجنود الى عشرات الآلاف . . والمسألة على أي حال أن أخرج من هذا السجن الذي ضربته على نفسي ، قاستوص بيتي خيرا يا أخي ، وأطلب الى عمي أن يجهز عدة من فرسان شيزر للخروج معنا ، فأنني أكره أن يقال ان أبا العساكر لم يشترك في تكوين الجيش الذي كسر الفرنج تحت راية عماد الدين .

ويقرر التاريخ بعد ذلك أن عماد الدين وجد في أسامة ما وجده في رجاله المقربين ، وخاض معه عدة معارك بعد أن أخضع حماة سنة ١١٣٠ تاركا شيزر لبنى منقذ ، وفي سنة ١١٣١ خاف عماد الدين أن يسفر الصراع الذي نشب بين فولك الخامس - الذي أفلت من يده ليرث صهره بلدوين الثاني في اورشليم - وتاج الملوك بوري بن طفتكين عن ضياع دمشق ، وطلب اليه أن يتوسط في الصلح بينهما مستغلا تقدير زوجة الملكة لبنى منقذ غير ناسية الأيدي الكريمة التي مدوها الي أبيها في أسره .

وفي العام نفسه مات السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه فتنازع السلطنة أخواه مسعود وسلجوق شاه وابنه داود ، وانضم عماد الدين الى مسعود ، فوجد أسامة نفسه يحارب في العام التالي قراجا الساقى في تكريت الذي انضم الى سلجوق شاه ضد مسعود . وعلى الرغم من بلاء عماد الدين وأسامه فقد انتصر قراجا وانحاز عماد الدين الى تكريت حيث التقى أسامة لأول مرة بواحد من الأيوبيين الذي ارتبط بمصيره (١) .

(١) راجع أسامة بن منقذ لطاهر النعماني ٣٠ والروستين في أخبار الدولتين ١ : ٩٨ والنجوم الزاهرة ٥ : ٢٤٣ وذيل تاريخ دمشق ١٩٧ ، R. Grosset: Hist. de Croisades; vol. II, P. 132.

وفي سنة ١١٣٦ كانت وقعة قنسرين التي حضرها أسامة مع عماد الدين وذكر أن قتلى الفرنج بلغوا ثلاثة آلاف جمعت رءوسهم في حقل مقابل الحصن (١) وفي العام نفسه شهد أيضا المصاف على رمنية بين الافرنج وعماد الدين (٢) .

وفي سنة ١١٣٨ يسبق عماد الدين الى شيزر وقد حاصرها يوحنا الثاني امبراطور بيزنطة في مائتي ألف مقاتل معهم مجاتق هائلة ، وكان قد اجتاح الاثارب وكفر طاب وأفامية والمعرة .

وبين هذه المصافات والوقعات كان يخوض معارك أخرى جانبية عرض لها في مذكراته عرضا يكشف عن أنه لم يعرف قط دعة ولا حاول هو أن يبحث عنها ، وكان ما كسبه شبيئين : أولهما حب عماد الدين له جبا حفظ له استقلال شيزر ، وثانيهما اشباع هوايته في الضرب والطعان .

(١) هذه الوقعة أول ما وجد في الاعتبار ، مع ملاحظة أن في مبتدئه خرما اشار اليه فيليب حتى محقق الكتاب .

(٢) رمنية : بفتح أوله وثانيه وكسر ثالثه مدينة من أعمال حمص ، ويقال لها أيضا رمنية تدمر بالقرب من حصن بعسرين ، وللاستزادة عن الحصون التي لعبت دورا كبيرا في حوادث هذه المرحلة من التاريخ راجع : Camille Enlart: Les Monument Croisees.

R. Grousset: Croisades, II, P. 172.

نهاية مرحلة

على الرغم من أن مؤيد الدولة أبا المظفر أسامة كان من أكثر المقربين إلى عماد الدين طوال تسعة أعوام كاملة ، فإنه لم يكن قط بالرجل الثاني ولا الثالث بعد ذلك الأتابك الأزرق العينين في الموصل ، بل لم يكن على الإطلاق أحد الذين يؤثرون في مجرى الأحداث . وآية ذلك أنه لم يتفرد بقيادة جيش قط . بل إن صلاح الدين الفسياني عندما عين أميراً على كفر طاب وجعله أميراً لجيوشه لم يترك له فرصة العمل وحده ، فكان يخرج معه للغزو جاعلاً لنفسه الكلمة الأولى والأخيرة .

ولقد أقطع أقطاعاً في الموصل ، ومع ذلك ظل على اتصال بشيزر ، وكان إذا قذفت به النوى فزار خربتوت والأثارب أو تردد على حلب ودمشق يعرج على شيزر ، فتفقد مزرعته وأحصى غلاتها وأقرأ أهله السلام غير مطيل ولا ملح .

وربما كان من أبرز الأسباب التي جعلته يميل إلى ملازمة الفسياني على ما لرفقته من علات هو أن يظل قريباً من مسقط رأسه ، بعد أن صرع بوهيموند الثاني سنة ١١٣٠ وولى أنطاكية ريمون دي بواتيه فاتحه (١) بمطامعه إلى شيزر على عادة كل أمير أفرنجي جديد تخلعه أمانيه في التوسع .

والطريف أن عماد الدين حذر أسامة من الفسياني قائلاً له

R. Grousset : Croisades. II, P. 172.

انه واحد من اخطر ثلاثة في الدولة لأنه - على ما يذكر في مذكراته ناقلا عن الأتابك - لا يخشاه ولا يخشى الله ، وأما الاثنان الآخران فهما : على بن كوجك الذى يخشى الله ولا يخشاه ، ونصير الدين سنقر وزيره الذى يخشاه ولا يخشى الله !

على أن أسامة الذى يستطيع أن يروض الوحوش ويقضى عليها لم يكن بالذى يعيبه أمر الفسيانى ، فخرج معه الى معارك موقعة في حمص سنة ١١٢٢ بعد عودته من دمشق ، وفي كوهستان وحسن الكرخينى بجوار اربل سنة ١١٣٣ ، وفي شيزر نفسها ضد الباطنية سنة ١١٣٥ ثم ضد يوحنا الثانى يؤازره جوسلان وريمون دى بواتيه سنة ١١٣٨ . وعندما كتب عنه في مذكراته أشاد به على رغم قسوته وعنفه ، ولم يعلق على ما تردى فيه من اخطاء ، واذ ينتهى الى أنه نهب يوما ملابس خيطة لفقراء مكة يصرح بأنه يكتفى بأن يتمثل قوله :

دع ذكر من قتل الهوى فحديثهم

فينا يشيب ذكره المولودا

ويحكى أنه اعترض عليه يوما لأنه قصد طبرية في أحد أعياد الافرنج للتفرج على فرسانهم وهم يلعبون بالرماح ، والمج الى كثرة خروجه للصيد ، فلم يجد الا أن ينشد له :

ولله منى جانب لا أضيعه

ولله منى والبطالة جانب

ولقد رآه يمتطى صهوة فرسه فيأتى بالأعاجيب ، ويكلم الافرنج بلغاتهم المتعددة فلا يملك الا أن يزداد به اعجابا وله تقديرا . لكنه لما قص عليه أن أباه ماكاد يسمع باستعداد الروم لفزو بلده حتى رفع مصحفا كان ينسخه وقال « اللهم بحق من أنزلته عليه ان قضيت بمجىء الروم فاقترضنى اليك » لم يزد على أن نهنه :
- لم يعد الا أن تفرغ لشئونك !

كان ذلك فى سنة ١١٣٧ ، وفى العام التالى حوصرت شيزر ونصبت عليها مجانيق هائلة ترمى الثقل وتبلغ حجرها مالا تبلفه النشابة ، ويزن الحجر عشرين رطلا وخمسة وعشرين . ولما كان للأعداء الى جانب ذلك مائة ألف فارس ومائة ألف راجل ، فقد وجد أبو العساكر أن من الضرورى الاستنجاد بعماد الدين بخاصة بعد سقوط حصن الجسر .

ومن المؤكد أن الفسيانى لم يعط أسامة - الذى أصبح من عمال عماد الدين - فرصته للعمل الحر ، وعقب احدى المعارك التى كان يشترك فيها ابنه شهاب الدين أحمد الذى اضطر للارتداد قال لأسامة :

- أما ترى ما فعله هذا الولد المثلث ؟

قلت :

- وأى شىء فعل ؟

قال :

- أنفذ الى يقول « أبصر من يتولى بلدك » .

قلت :

- وأى شىء عملت ؟

قال :

- نفذت الى أتابك أقول « تسلم موضعك »

قلت :

- بئس ما فعلت ، أما يقول لك أتابك « لما كانت لحما أكلها

ولما صارت عظما رماها على »

قال :

- فأى شىء أعمل ؟

قلت :

— أنا أجلس فيها ، فان سلم الله تعالى كان بسعادتك ويكون وجهك أبيض عند صاحبك ، وان أخذ الموضع وقتلنا كان بأجلنا وأنت معذور .
قال :

— ما قال لى هذا القول أحد غيرك .

وتوهمت أنه يفعل ذلك ، فحفلت الفم والدقيق الكثير والسمن وما يحتاج اليه المحاصر ، وبينما أنا فى دارى المغرب اذا رسوله جاءنى وقال :

— يقول لك صلاح الدين « نحن بعد غد سائرون الى الموصل فاعمل شغلك للمسير »

فورد على قلبى من هذا هم عظيم وقلت أترك أولادى واخوتى وأهلى فى الحصار وأسير الى الموصل ، وأصبحت اليه وهو فى الخيام فاستأذنته فى الرواح الى شيزر لأحضر نفقة ومالا نحتاج اليه فى الطريق ، فأذن وقال :

— لا تبطئ !

فركبت ومضيت الى شيزر ، فبدا منه ما أوحش قلبى ، فقد انفذ الى دارى فرجع كل ما فيها من الخيام والسلاح والرحل ، وقبض على أمر أجبتي وتتبع أصحابى ، فكانت نكبة كبيرة رائعة .

وعلى هذا النحو يرسم أسامة الخطوط العريضة فى تلك الكارثة التى وضعت جدا لعلاقاته المعيشية فى شيزر ، ومن جانب آخر نرى عماد الدين يعجم عود الروم والافرنج فلا يجد الا الوقعة بينهم وسيلة لرفع الحصار . وكانت كل الظروف مهية لهذا الأمر ، بعد أن اضطر ريمون دى بواتييه الى أن يقسم ليوحنا الثانى قسم الولاء والطاعة وبذلك ينسلخ عن الافرنج ، وبعد أن

تعلل جوسلان بشتى العلل ليعود الى الرها فكشف هذا ليوحنا أن الفرنج غير جادين في حربهم . وما لبث الامبراطور أن وافق على مبدأ الصلح ، وأهدى اليه سلطان عددا موفورا من الخيول العربية ، وما كاد يصل الى انطاكية بعد حصار لشيزر استمر ثلاثة أسابيع - قذفت فيها بالمجانيق - حتى واجه ثورة عنيفة دبرها له جوسلان !

وينفق أسامة بعض عام ١١٣٨ في الموصل حزينا مفكرا ، يتوجع حيناً فيعبر عن توجعه بالشعر ، ويعكف حيناً آخر على القراءة وارتياذ منازة البلد وأرباضه في صحبة أبي الحسن على ابن أبي الآمال والأمير السيد شهاب الدين أبي عبد الله العلوى وشمس الدين أبي المجد الحسينى (١) ، وكثيرا ما عمد الى حيطان داره فنسخ بالألوان عليها بعض شعره :

دار سكنت بها كرها وما سكنت
روحي الى شجن فيها ولا سكن
والقبر استر لى منها وأجمل بى
ان صدنى الدهر عن عودى الى وطنى

فما كان لرجل القوة الذى يهيمن على الحياة المادية بزنده وسيفه أن يهيمن على لواعجه ، وانما يروح يختزن على الدوام وخلال ترحاله وتجواله مجموعة من المشاعر لا تزال تتضخم حتى يأتى الوقت الذى ينبغى أو يكون من الطبيعى أن تنفجر فيه . واذ ينجح فى التخلص منها بالخروج الى الصيد مع شجاع الدولة وبعض غلمانه وأصدقائه ، ترجو زوجه وأمه بأن يربع على نفسه بخاصة أنه اكتهل ، الا أنه يؤكد لهما أنه بخير ماذام يتحرك والمهالك على أية حال لا تقصف عمرا .

(١) نقل عنهم فيما ألف من كتب باستثناء الاعتبار - راجع على سبيل المثال كتاب العصا ٢٠٨ ، ٢١٠ ط . القاهرة سنة ١٩٥١ نوادر المخطوطات ٢٩ .

فهذا فارس بن زمام الذى طعنه ابن عمه يحيى وسمع هو
قعقة رمحه فيه وهو يسقط ، يكتب الله له النجاة .

وهذا أيضا حمدات العجوز الذى كان صديق أبيه - رحمه
الله - يحارب حتى يعيش بصره وهو شيخ كبير ، فى حين يموت
مياح الكردي وهو فى شرح الشباب ، بل يموت وهو لابس فوق
درعه قميص العرس الأحمر فقلنا « يا قرب مأتمة من عرس » .

ثم هذا بدى القشيري خاض معركة المجانيق سنة اثنتين وثلثين
وخمسائة وهو عار ما عليه الا ثوبان ، فطعن فى صدره حتى خرج
الرمح من جانبه ، ولما رجع كنا نظن أنه يموت ولكنه برىء وعاش .

وابن الأحمر الكنانى من ينسأه ؟ ألم يسقط بين أنياب
الأسود ، فما زاد على أن راح يلحق دمائه حتى تسلق الشجرة ؟

وفى هجوم الباطنية على شيزر سنة ١١٣٥ أبلى الرئيس جواد
بلاء طيبا دلنا على أن أحد أصحابنا وهو مقتول فوق شيء ، فلما
رفعناه وجدنا من تحته رجلا من الحشاشين قد تسجى ورفع
المقتول على صدره . فقتلناه ووضعنا صاحبنا على بلاط الجامع
فتحرك ، فخيطة جروحه وعاش .

ولشد ما كان يندفع الواحد منا الى اطراف الرماح فلا تنال
منه ، وكثيرا ما جرحنا حتى ظننا التلف فى تلك الجروح ، ولكن
هيهات !

وأن تعجب فعجب وقد نفذو على شفا هاوية أن لا نسقط ،
بينما يموت فى فراشه الذى حذر الموت وتحصن ضده !

وفى أحد الأيام يعود من قصر أتابك الى داره ، فيجد رسولا
من أخيه أبى الحسن على ومعه كتاب ، وما يفضه حتى يند عن
صدره آهة طويلة ويقرا :

ألا هل لمحزون تذكّر الفـه
فحن وأبدى وجده من يعينه
وعيشا مضى بالرغم اذ نحن جيرة
ترف على روض الوصال غصونه
لدى منزل كان السرور قرينكم
به فتولى اذ تولى قرينه
فلو أعشبت من فيض دمعى محوله
لما رضيت عن دمع عينى جفونه
هنالك حزم امره على السفر ، واستأذن عماد الدين
فسمح له .

فشد الرجال من جديد الى شيزر وقد تناهبه الخوف والقلق
والشك والحنين الى اللهو بالقنص وصراع الأسود ، لكن احساسا
واحدا بالتحدى لم يخامره .

بل على العكس عقد العزم على أن يكون المسالم الموادع ،
وكتب شعرا تصور أنه يقصد به عمه :

قالوا نهته الأربعون عن الصبا
وأخو المشيب يجور ثم يهتدى

كم جار فى ليل الشباب فدلّه
صبح المشيب على الطريق الأقصد

واذا عددت سنّى ثم نقصتها
زمن الهموم فتلك ساعة مولدى

ولا شك أنه كان مبالغا ، فهو أولا لم يشب حتى هذه السن .
وظل محتفظا بنضارة غير مألوفة لمن هم فى عمره ، ومن ناحية
ثانية لم يعان ما يدخل فى باب الهموم سوى الاحساس بالغربة ،

وهذا يستعان عليه عادة إما بالتعرف الى اخوان جدد واما بالقراءة ونحوها !

وما كاد يحط رحاله وهو يحلم بأيام صفو بين أهله وذويه ، حتى تتردد عليه رسل أتابك في طلبه الى صاحب دمشق ، فيقصدها في أهله ومواليه وقلبه عامر بالأمل . وكأنه كان يحس أن تلك المدينة التى زارها قبل - وهى جنة المشرق ومطلع حسنه المشرق - تستطيع أن تكون له فى ظل البوريين أصحابها أطيب منزل وأجمل مرتع .

الباب الثاني

مواطن بلا وطن

(١) صراع في دمشق

قدم أسامة دمشق في الأيام الأخيرة من عام ١١٣٨ ، وكانت مهمته فيها غير واضحة تماما . فمن ناحية كان يبدو أن عليه الاتصال بفولك دانجو ملك أورشليم للعمل على تحسين علاقاته بصاحب دمشق ، ومن ناحية أخرى يعمل على أن يروج لفكرة الانضواء تحت راية عز الدين الذي أطلق عليه « قاهر الكفرة والمتمردين » رغم أنه كان حتى تلك اللحظة لا يوسع رقعة مملكته إلا على حساب الأمراء المسلمين .

ولقد كان على دمشق يوم جاءها أسامة الأمير شهاب الدين محمود بن تاج الملوك ، وكان أبوه قد اغتاله الحشاشية سنة ١١٣١ فتولى في ظروف عصيبة أطمعت فيه الجميع ، حتى ان ابراهيم ابن طرغت صاحب بانياس من قبل عماد الدين هدد بغزوه . وقد قتل شهاب الدين - وكان أكرم وفادة أسامة وأعانه على السكنى في القوطة - في شوال من عام ٥٢٣/١١٣٩ فخلفه أخوه جمال الدين ابن تاج الملوك بوري ثم مجبر الدين عصب الدولة أبو سعيد أبق في أجلك ساعات التاريخ . فقد كانت جيوش عماد الدين قد زحفت من حلب وحطت عند بعلبك ، ثم ضربتها بالمجائق حتى استسلمت له في يناير من سنة ١١٤٠ ليبدأ حصار دمشق للأخذ بثأر شهاب الدين ، لأن أمه كانت إحدى زوجات عماد الدين (١) .

(١) راجع تاريخ ابن الفداء ٣ : ٣٦٤ والنجوم الزاهرة ٥ : ٢٩٣ والروستين

١ : ٧٠ وما بعدها .

وفي اشتجار الأحداث يتمكن معين الدين أنر الوزير من أن يستميل إليه أسامة كاشفا له عن حقيقة توسعات أتابك الموصل ، فيعود إليه الشك في نيات هذا الأتابك قاهر الكفرة ، ويأخذ على عاتقه أن يفسد مخططاته . ولقد وقع والحق يقال في أزمة نفسية طاحنة ، وراح يسأل أترأه الحق أنه جاء الى دمشق ليكون مجرد مخلب قط ؟ ولماذا لا يبدأ عماد الدين بضرب أنطاكية ان كان يعنيه الأمر في منطقة الرها وبلاد الأرمن ؟

الآن تأكد أن معين الدين أنر ينظر الى المشكلة من الزاوية نفسها التي يتبناها سلطان في شيزر ، فان المحافظة على الاستقلال ضد أى تيار توسعى يلتئم والمنطق أو يتمشى وطبائع الأشياء . وبديل أن تدخل السرور على القلوب شعارات قاهر الكفرة والمتمردين نكأت جروح الخوف في الصدور ، اذ شعر الجميع بعزة أنفسهم المهيضة أمام طامع مستبد .

وبدأت عمليات البحث عن الحلول فانتهى الاثنان - أسامة وأنر - الى أن الضرورة تقتضى الاتصال بفولك في بيت المقدس لعقد محالفة ثنائية ترمى الى مناهضة أتابك الموصل (١) . حقا راحا يقيمان الوزن لما قد ينهض امامهما من اعتراضات واحتجاجات - وقد بصرهما الى ذلك أحد بنى الصوفي العرب وهو أبو الفوارس المسيب بن على بن الحسين - الا أنهما شاءا أن يولياها الاغفال ولو الى حين .

ومن ثم وصل أسامة الى بيت المقدس ومعه رصيد هائل من التأييد والتقدير ، فاستقبل خير استقبال ، والمملك يذكره بالجميل

(١) قابل هذا بما رواه مؤرخان عاصرا تلك الأحداث وكتبنا عنها ، أولهما ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق ٣٠٨ ، ٣٠٩ وثانيهما وليه الصوري

الذي أسداه بنو منقذ لحميه بلدوين الثاني . وراح الفرسان
الداوية يرحبون به على أساس أنه فارس العصر المثالي ، ووجد
من الجميع الثقة في حسن مسعاه عندما ألح اليهم أنه قادم لمواجهة
خطر يتهدد الفرنج والمسلمين جميعا .

غير أن فولك طلب أن يجلس الى صاحب دمشق نفسه ،
فأفهمه أسامة أنه لا حول ولا قوة له ، وأما أنر فهو يتربص
لعماد الدين في دمشق ولا يستطيع لذلك أن يبرحها ساعة واحدة .

واذن فلا بد من عقد الاتفاق بينهما . وإذا كان حموه قد وثق
بعمه أبي العساكر سلطان أمس فتم له ما أراد ، فلا عليه الا أن يثق
هو فيه اليوم فيبرم العهد وتكون له صفة التقديس . لكن فولك
عاد فطلب الضمان ، وصرح بأنه اذا كان لابد من الوصول الى
اتفاق ناجح فينبغى أن تمنح له بانياس . بمعنى أنه اذا كان عليه
أن يعينهم في طرد عماد الدين ، فان عليهم في المقابل أن يعينوه
على طرد ابراهيم بن طرغت عامل أتابك الموصل .

ورجع أسامة الى أنر بهذه الفكرة فرغب فيها ، مادامت
تستهدف الاطاحة بأحد عمال عماد الدين الخطرين على أمن
دمشق ، وأعطاه كل الحق في وضع صيغة المحالفة النهائية . فلم
يرجع اليه الا والاتفاق معقود على أن يعد فولك حملة من الفرنج
ينفق عليها أنر بالاضافة الى عشرين ألف بزانت اتاوة تدفع له
شهريا ، وفي المقابل يعاون الدمشقيون الفرنج في ضم بانياس
اليهم .

وخرجت الحملة الى دمشق فرحب بها أنر ، وهيا لها فرص
الاتصال بعساكره الذين كان من بينهم أسامة نفسه . وسرعان
ما فك عماد الدين حصاره وارتحل الى بلده في رمضان من عام
٥٣٤ / ابريل سنة ١١٤٠ بينما انتزعت بانياس من ابراهيم
ابن طرغت .

ولا جدال في أن أسامة أراح الدمشقيين ، فأحبوه وسعوا الى مجالسته في داره مقرين بفضلته . كذلك نفع الفرنج ؛ فكانوا يدعونه الى حفولهم وأعيادهم ، بل ان بعض فرسانهم آخاه حتى ليقول في مذكراته « كان في عسكر الملك فولك بن فولك فارس محتشم افرنجي ، قد وصل من بلادهم يحج ويعود فأنس بي وصار ملازمي يدعوني أخى ، وبيننا المودة والمعاشرة . فلما عزم على التوجه في البحر الى بلاده ، قال لى : يا أخى أنا سائر الى بلادى وأريدك تنفذ معى ابنك - وكان ابنى معى وهو ابن أربع عشرة سنة - يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية ، فاذا رجع كان مثل رجل عاقل » .

ويوم طفى حاكم بانياس الجديد فأخذ بعض قطعان غنم من الشعراء ذهب هو الى فولك دانجو وقال :

— هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا وهو وقت ولاد الفهم ، فولدت وماتت أولادها ، وردها علينا بعد أن أتلها .

فقال الملك لسته من الفرسان أو سبعة :

— قوموا أعملوا له حكما

فخرجوا وتشاوروا ، فقالوا :

— قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتل من غنمهم فتوسل الى حتى أخذت أربعمئة دينار ، لأن هذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمى الافرنج على تغييره ، ولا ينقضه ، فالفارس أمر عظيم عندهم !

وكانت لديه عادة قديمة ، هى الخروج في الأسواق لشراء أسرى الافرنج من المسلمين - بدأها منذ عام ١١٣١ - فرأى أن من الخير العودة اليها ، لأن فى اطلاق قيد مسلم دعما لقوى اخوانه وبني جلدته ، بخاصة أنه كان يرى أن السلام مهدد دائما ، على

الأقل في الشمال حيث راح يوحنا امبراطور بيزنطة يبحث عن
امارة لابنه عمانوئيل ، وكان هذا بدوره - وهو فارس من طراز
نادر - شديد الطموح وذا مطامع لا تنتهى .

ومن ناحية أخرى كان معين الدين أنر لا يخفى وساوسه ،
وعلى الرغم من أن أسامة جمعه بفولك في عكا فقد ظل على ايمان
بأن من الخير ملازمة الثكنات والأخذ ببأساء النظام العسكرى ،
لأن من الصعب على مسلم أن يستل من صدره كراهيته لمفتصب
أرضه وأصعب من ذلك على الأفرنجى أن يتصور أن الصراع قد
أوفى على الغاية (١) .

(١) لمعرفة مدى خطر هذا الامبراطور والدور الذى لعبه مع الأفرنج في
حوادث الاحتلال يقرأ :

V. Cinnamus: Hist., Vol, I PP. 124, 125, 190, 291, Vol. II, 4 - 10.

Q. Grousset: Croisades, II, PP. 172, 173,

(٢)

ضد الاتابك أبدا

في إبان ذلك كانت أمور أخرى تجرى وقدر لها أن تقرب أسامة من معين الدين أنر ، فبعد أن دكت بعلبك وولاهها عماد الدين إلى نجم الدين أيوب راح يستقبل الأمراء من مختلف الدول الإسلامية ، بعضهم يظهر له الولاء ، وبعض آخر يستمده العون . وكان من الذين أرادوا اللجوء إليه وزير الحافظ الفاطمي الأفضل رضوان بن الولخشى ، وقد نزل هاربا بصفة مؤقتة عند أمين الدولة كمشتكين صاحب صلخد - صرخد - ليتاح له أن يلقاه ، ولما انتهى الخبر إلى دمشق قال أنر لأسامة :

- هذا الرجل ان انضاف الى اتابك دخل علينا منه ضرر كثير .

فقال أسامة :

- فأى شئ ترى ؟

قال :

- تسير اليه لعلك ترد رأيه عن قصد اتابك ويكون وصوله الى دمشق ، وأنت ترى فيما تفعله في هذا رأيك .
فسرت اليه في صلخد واجتمعت به وبأخيه الأوحى وتحدثت معهما فقال لى الأفضل رضوان :

— فرط الأمر منى ورهنت قولى عند هذا السلطان بوصولى اليه ولزمنى الوفاء بقولى .

قلت :

— أقدمك الله على خير ، وأنا أعود الى صاحبى فانه ما يستغنى عنى بعد أن أخرج اليك بما فى نفسى .

قال الأفضل :

— قل !

قلت :

— اذا وصلت الى أتابك ، معه من العسكر ما ينفذ نصفه معك الى مصر ويبقى نصفه يحاصرنا به ؟

قال :

— لا !

قلت :

— فاذا هو نزل على دمشق وحاصرها وأخذها بعد المدة الطويلة يقدر ، وقد ضعف عسكره وفرغت نفقاتهم وطالت سفرتهم ، يسير معك الى مصر قبل أن يجدد بركه ويقوى عسكره ؟

قال :

— لا !

قلت :

— ذلك الوقت يقول لك « نسير الى حلب نجدد آلة سفرنا » فاذا وصلت الى حلب قال « نمضى الى الفرات نجمع

الترکمان « فاذا نزلتم على الفرات قال « ان لم نعد الفرات ما يجتمع لنا التبرکمان » فاذا عديتم تشوف بك وافتخر على سلاطين الشرف وقال « هذا عزيز مصر فى خدمتى » وتتمنى ذلك الوقت أن ترى حجرا من حجارة الشام فلا تقدر وتتذكر حينئذ كلامى وتقول « نصحنى ما قبلت » -

قال :

- ماذا أعمل وأنت تريد أن ترجع ؟

قلت :

- ان كان فى مقامى مصلحة أقمت !

وقد انتهى الاجتماع بأن يذهب الأفضل الى دمشق على أن يتقاضى ثلاثين ألف دينار نصفها اقطاع ، ويكون له دار العقيقى ، وسجل ذلك بنفسه - وكان جيد الخط - وأبدى استعداداه للسير معه ، ولكن أسامة قال له :

- بل انا أسير ومعى الحمام من ها هنا ، فاذا وصلت وأخليت الدار ورتبت الأمر طيرت اليك الحمام ، وسرت أنا فى الوقت القالك فى نصف الطريق وأدخل بين يديك .

وحتى هنا نجح أسامة ، وقد عاد الى دمشق وهو يغبط نفسه مدفوعا بالاعتقاد أنه فوت على عماد الدين فرصة هائلة ، ومسوقا برغبة صادقة فى ارضاء معين الدين . غير أن ما وقع بعد ذلك لم يكن فى الحسبان ، فمن جانب بلغه أن عماد الدين تسخط عليه لما علم بدوره فى عدول الولخشى عن الوصول اليه ، ومن جانب آخر أغرى هذا بالعودة الى مصر - دون العروج على دمشق - وقد أمده كمشتكين بجيش لضرب الخليفة الفاطمى ، لكن هذا تمكن منه .

وكان من الممكن - مع ذلك - أن يمر هذا الحادث دون مضاعفات لولا أن قال محمود المسترشدى الكاتب في مجلس سمر حضره طمان الياروقى وكان صديقا حميما لأنر :

- بلغنى أن العامة تقول لماذا يحتاج مولانا معين الدين الى أن يسخط الأتابك بمؤيد الدولة ؟

فرفع طمان الياروقى رأسه عن رقعة الشطرنج وقال لأسامة كالمضحك :

- الحق أننى أحس أنه يرمينا بك .
فقال أسامة :

- الى أنا يقال هذا الكلام ؟
وظل معين الدين صامتا ، فقال طمان :

- أنت سيدنا يا أبا المظفر ولكن ...
قال معين الدين مقاطعا بحدة :

- لا لكن .. والله لولاه لما بقى شىء على حاله !
قال طمان :

- لكل دهر رجال على أى حال
فقال معين الدين ؟

- ماذا تعنى ؟

فأجاب

- انه يريدنا حربا دائمة .
فصرخ أسامة قائلا :

- أفتدعو الى ترك السلاح يا رجل ؟

وكان السؤال مباغتاً فوجم طمان ، بينما أترق أنر ، فانبرى أسامة مستطردا :

- أرجو ألا تجعلنى أريد نفسى على ما أكرهه ولا تقل ان دمشق ليست بحاجة الى جيش مستعد ، وانه اذا توافر لى امرىء الشرف وثبات الجنان ورباطة الجأش والعزم وعقد كل أولئك بحب الأمير كان خير جندى فى خير جيش يقابل الأتابك وغير الأتابك .

قال معين الدين :

- هو على حق ..
فغمغم طمان وهو يحرك بيدقا على الرقعة :
- هو دائما على حق .

وكانت تلك آخر عبارة نطق بها فى مجلسه هذا ، واما أسامة فقد تطلع الى محمود الكاتب وقال :

- أرجو أن تنقل لمولانا الأمير دائما ما يقوله العامة ، لكن يجب أن تذكر قول المثل ان حالت القدس فسهمى صائب .
ولم يدر أحد سوى طمان الياروقى ما يرمى اليه ، فنهض معتذرا بأنه يريد أن يحتجم ، فى حين أقبل أسامة عمل أثر وهو يقول :

- أحب أيها الأمير أن لا تنحاز لى ، فان رأيتنى أخطأت راجعتنى فما أريد أن ألزمك بما أفعل .. ومع ذلك فهل تأذن لى أن أكون معك صريحا ؟

قال أثر :

- وهل كذبت على قبل يا أبا المظفر ؟

فقال أسامة :

— لا والله ، ولكننى أحس أنى أثقل على ناس برعايتك لأسبابى
واشتمالك على .

فنهض معين الدين واقفا وهو يقول :

— دع ما يقال يا أبا المظفر فلن تفارقنى ، والذي بيننا من المودة
فوق ما يقال .

الباحثون

المدة التى قضاها اسامة فى دمشق - وقد انتهت سنة ١١٤٤/٥٣٩ - اتسمت بالهدوء على وجه الاجمال ، وبلغ من تغير ظروفه أنه كان يطيل جلسات العلم والمذاكرة . وباستثناء رحلاته مع معين الدين الى طبرية وعكا وبانياس ومرات معدودات لقنص السباع ، فانه لزم القوطة حيث اخذ يتردد على داره كبار القوم ورجال العصر . ومن هؤلاء رئيس كتاب دمشق أبو يعلى حمزة ابن القلانسي التميمي ، والرحالة المؤرخ أبو القاسم على بن الحسن ابن عساكر والمحدث صاحب الانساب عبد الكريم بن محمد السمعاني ، والشاعر الفقيه عمارة اليمنى ، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولى والعالم الفقيه الفنڊلاوى .

كما اعتاد أن يزوره المسيب بن على ويبادلوه الزيارة ، ومرة واحدة انتجع بعلبك فى ضيافة ابن عمه يحيى بن سلطان وزار معه نجم الدين أيوب وقد سمع بشهرته كفارس ومحارب ، ومثلها الم بشيزر حيث كانت تساجل ريمون دى بواتيه فى أرباض بندر قنين على الرغم من أنه كان يعلم تماما أن عمانوئيل الأول امبراطور بيزنطة - وقد خلف أباه سنة ١١٤٣ - أكثر خطرا عليه من اغارات هذه الامارة العربية الصغيرة .

ومع ذلك فاننا نشعر بأن علينا ألا نكتفى بهذا دون ايضاحات خاصة ، وذلك لاننا نجد نجله يشد رحاله فجأة الى مصر ، بل هو

فعل ذلك - فيما يبدو من مذكراته - مضطرا ، وان الملح الى أن الناس كانت تخوض فيه كما خاضت في معين الدين نفسه ، ومن أجل ذلك اضطر الى أن يقول له بشعره :

الم تعلم بأنى لانتمائى اليك رمى سوادى كل رام
ولولا أنت لم يصحب شماشى لقسر دون اعدار الحسام
ولكن خفت من نار الأعادى عليك فكنت اطفاء الضرام

وفى جلسة جمعته بابن القلانسى والمسيب تذاكروا اخبار بنى منقذ فقال لهما انهم - وهو فيهم - تعودوا أن يقابلوا بالجحود ، وليس يدرى أهى لعنة أم فى عروقهم ما ينفر القوم منهم . وضرب لهما مثلا بنفسه حين حاول بالاتفاق مع أنر على أن يجذبا اليهما الأفضل رضوان ، وكانت النتيجة أن قيل أولا عنه أنه منافق ، ثم لما زاره الأمير سيف الدين على بن السلار - والى اقليم البحيرة والاسكندرية - قيل انه فاطمى .

وهو لا ينكر أن ابن السلار حبيه فى مصر ، واكد له أن خليفتها الحافظ يتمنى على طول الشقة لقاءه . غير انه اعتذر بضرورة أن يبقى قريبا من ميدان المعركة . ولقد رفض ابن القلانسى الادعاء من أساسه ، فى حين تحفظ المسيب شيئا ، وذكر أن ما يعيب أسامة - على علمه وفضله وشجاعته - قصور نظره ، وبعبارة موجزة :

- أبو المظفر لا يعرف مواطىء قدميه !

وبعد أسبوعين أو ثلاثة تقريبا من هذا الحديث همس محمود الكاتب فى أذنه أن غلمان القصر وأساتيذه يرجفون بتدبير قيل انه أعده ضد مجير الدين ، والا فقيم مجيء ابن السلار اليه ؟ وقد أثار ذلك اهتمامه وخوفه ، لأنه فضلا عن تعارضه مع مبادئه يظهره بمظهر الكنود - فكأنه كان زورا كل شكره على ما أقطعه آياه وملكه .

وقد كان جائزا أن يظل الموقف معلقا على ذلك النحو لولا أن تعرض له طمان يونا وهو في دار أنر ، وكان أسامة قد فرغ من صلاة المغرب فابتدره قائلا :

— غفر الله لك يا مؤيد الدولة .

فقال أسامة :

— تقول الناس في هذه المقامة حرما .

فعاد يقول :

— ولكنني أقولها الساعة عساها تشفع لك .

قال أسامة والأمير أنر صامت كعادته ، ويحرك مسبحته بين أصابعه في اضطراب بين :

— كآني أتيت أمرا ادا ؟

فقال طمان :

— بل مرقت والله سبحانه يقول « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »

فتسائل أسامة :

— وهل شققت أنا عصا الطاعة ؟

فتدخل معين الدين أنر قائلا :

— كنت أمس أقول يا أبا المظفر أنا كفيلك واليوم لا أستطيع ! وبهت أسامة ، لكنه قال بثبات :

— ولماذا أيها الأمير ؟

فأجاب أنر :

- جاءنى بعضهم بكلام عنك فقرات عليهم قوله تعالى « يا ايها
الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا »
فقال أسامة :

- وهل لم يتبين الأمير ؟
فاندفع طمان يقول :

- فى صدر مولانا حرج فدعه يا رجل !
وخرج توا قاصدا دار المسيب ، فما استطاع أن يبين إلا بعد
أن أنشد :

انظر بعينيك هل ترى أحدا يدوم على الموده
فترى اخلاء الصفا عدى اذا نابتك شده

فقال للمسيب متمكرا :

- وما الشدة يا مؤيد الدولة ؟
فأجاب :

- يقولون انى أدبر لابن السلار ضد مجير الدين .
فتساءل :

- اكذلك ؟
فقال :

- انت تعلم دخيلتى ، ولكن هذا الياروقى يغمز بعد همس
الحاجب محمود الكاتب .
فقال المسيب :

- بقدر ما تظهر على القرن فى الطعان تغيب عنك أمور ..
يا للعجب !

فقال أسامة :

— وما غاب عنى ؟

فأجاب المسيب قائلا :

— مجالستك لى ومجالسة طمان الياروقى لمعين الدين .

فتساءل أسامة :

— وما العلاقة أياها الشيخ الفاضل ؟

فقال المسيب موضحا :

— اما مجالستك لى فتشير معين الدين ، واما مجالسة طمان

الياروقى له فتؤذن باستبداله بك عنده .

فتمتم أسامة :

— وهكذا تذاع قاله السوء عنى ؟

فأردف المسيب :

— ولن تدعك حتى تدع أنت هذه الأرض وما عليها .

وهنا قال أسامة بعد أن تفكر مليا :

— ما والله ادرى أين أنا ، ولكنهم قالوا ان اللثيم الجاهل لا يزال

ناصحا حتى يرفع الى المنزلة التى ليس لها بأهل ، فاذا

بلغها التمس ما فوقها بالفش والخيانة . وان اللثيم لا يخدم

السلطان وينصح له الا عن فرق أو حاجة ، فاذا أمن وذهبت

الحاجة عاد الى جوهره كذنب الكلب الذى يربط ليستقيم ،

فلا يزال مستقيما مادام مربوطا فاذا حل عاد الى اصله

فانحنى .

قال المسيب :

— ومن اللئيم يا أبا المظفر ؟

فأجاب وهو ينهض :

— من لا يعلم أن السعاية نار وقبولها والعمل بها دناءة والثقة
بأهلها غباوة :

يهون الخطب أن الدهر ذو غير
وأن أيامه بين الورى دول

وأن ما سر أو ما ساء منتقل
عنا ، والا فانا عنه ننتقل

حدث هذا ليلا ، وفي الصباح كبست داره بالشرط وصور
ما فيها . وكان القتل يقع في أهل بيته لولا أن خف محمود الكاتب
بعده من أعوان أثر ، فامتنع بهم حتى تهيأت له الفرصة فخرج
كالمطروود وقد أذهلته المفاجأة .

ثم جرت أسباب أوجبت مسيرى الى مصر ، فضاع من حوائج
دارى وسلاحى مالم أقدر على حمله ، وفرطت في أملاكى ما كان
نكبة أخرى .. كل ذلك والأمير معين الدين محسن مجمل كثير
التأسف على مفارقتى ، مقر بالعجز عن أمرى حتى انه أنفذ الى
كاتبه الحاجب محمود المسترشدى قال « والله لو أن معى نصف
الناس لضربت بهم النصف الآخر ، ولو أن معى ثلثهم لضربت بهم
الثلثين وما فارقتك .. لكن الناس كلهم قد تماثلوا على ومالى بهم
طاقة ، وحيث كنت فالذى بيننا من المودة على أحسن حاله » .

لكن انسانا واحدا فقط وقف الى جانبه فى محنته ، وخرج
معه الى بصرى على رغم ضعف حيلته ، وأمدّه بالزاد الضرورى ،
ولما أمن شرط مجير الدين ونهابة الاسماعيلية فى أرض فولك
دانجو ، ودعه وداع المفارق الى الأبد لأنه كان اذ ذاك شيخا عثى
بصره ..

أما هذا الإنسان فقد كان الرئيس جواد ، رآه أسامة ذات يوم
في أحد دكاكين دمشق ، وكان يبيع الفلال قانعا بالنزر الذي تدره
عليه أيام شحيحة قاسية ، وقد أخبره أنه شاهد اسحاق الحجام
في سوق النخاسة يقتله غلام له وهو يقول :

— ظننتني أيها الكافر حمارا استأتن !

هذه هي القاهرة

وصل أسامة الى القاهرة في الخميس ثانی أيام جمادى الآخرة من عام تسع وثلاثين وخمسمائة - ٣٠ من نوفمبر عام ١١٤٤ - وكان في صحبته أمه وزوجته وابنه وأخوه نجم الدولة أبو عبد الله محمد ونفر من موالیه ، فأنزلهم الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمی فی قصر الدار السلطانية التي بناها الوزير الأفضل بدر الجمالی قبل مصرعه .

وكان الأفضل رضوان بن الولخی محبوسا فی دار بجانب ذلك القصر ، فبدأ له أن يكلم الخليفة عنه فی أول لقاء یجمعه به . ولكن هذا تمكن من الهرب فی اليوم نفسه الى الجيزة ، وجمع أمره على القتال ، ثم أصبح بكرة الجمعة فی القاهرة وجند الخليفة من جيوشية وريحانية وفرحية واسكندرانیه تحت قيادة صاحب الباب تاج الملوك قیماز ، فرأى أسامة أن يضع نفسه فی خدمة مولاه الجديد ضد ابن الولخی .

ويبدو أن جند مصر كانوا من الضعف - يومذاك - الى الحد الذي استسلموا فيه للوزير الثائر . وعبثا حاول أسامة أن يلحق بحامية القصر الذي ينزله الحافظ ، فقد وجد الأبواب كلها مغلقة ، واضطر الى أن يرجع الى القصر الذي ينزل فيه والأنباء تتوالى بنزول ابن الولخی فی الجامع الأقمر واجتماع الأمراء اليه بالطاعة والنفقة والطعام .

ولم تكن هناك أية فرصة يتدبر فيها أسامة أمره أو ينعى سوء حاله ، لأن الحافظ جمع السودانية وأسكرهم ، ثم أطلقهم وراء الأفضل .. فاندفعوا الى الجامع الأحمر يتصايحون ، وهنا انفض الأمراء من حول الأفضل حتى اذا خرج من الجامع في أثرهم لم يجد أحدا ولا حصانه - فقد سرقه الركابي - وراه أحد غلمان الحافظ فقال له :

- أما تركب حصانى يا مولاي ؟

فأجاب :

- بلى !

فجاء نحوه يركض حتى اقترب ، ثم انحنى كأنه يميل الى النزول .. وفي لحظة خاطفة ضربه بسيفه فوق ، وأتى السودانية فأجهزوا عليه ، وتقاسم العامة لحمه يأكلونه ليفدوا مثله شجعانا . وأصاب ذلك اليوم رجلا من أصحابنا الشاميين جراح كثيرة ، فجاءنى أخوه وقال :

- أخى تالف وهو ما يفيق .

قلت :

- أرجع أفصده .

قال :

- خرج منه عشرون رطل دم .

قلت :

- أرجع أفصده ، فانا أخبر منك بالجراح وليس له غير الفصاد .

فمضى وغاب ساعتين ، ثم عاد وهو مستبشر وقال :

- فصدته ، وقد أفاق وجلس وأكل وشرب وذهب عنه البؤس .

قلت :

- الحمد لله ، ولولا أنى جريت هذا فى عدة مرار
ما وصفته لك !

هكذا كان استقبال القاهرة له ، وبقدر ما تخوف واستشعر
القلق فقد فتحت حادثة صاحبه الجريح أمامه باب الأمل . ولئن
كان قد خطر له فى أثناء المعركة أن يقصد الى ابن السلار ، فانما
أراد أن يتفادى كارثة تلحق بأهله فتكون الثالثة بعد ما كان من
الغسيانى معه فى حصار شيزر ثم ما جرى له من الدمشقيين
بعد ذلك .

وبهدوء الحال وارضاء الجند زار أسامة بن مصال الوزير
ليبلغه أن الخليفة أقطعه اقطاعا بكم أسفين فى القليوبية ، ومنحه
عدة من الخيول والجمال والبغال السروجية ومائة رأس بقر عدا
الماشية . غير أنه طلب اليه ألا يبرح الى اقطاعه حتى يأذن له مولاه
الخليفة ، وبذلك أتيحت له فرصة تفقد المدينة العظيمة التى بهرته
باتساعها وكثرة عمارتها .

وقد لاحظ على الفور أن حكومة الفاطميين لم تكن كحكومة
الموصل ولا كحكومة دمشق ، ففى ذينك البلدين تطفى التقاليد
العسكرية على ماعداها ، فى حين تبدو القاهرة مدنية تكثر فيها
الدواوين المشحونة بالعمال . . فهناك ديوان الانشاء ، وديوان
بيت المال ، وديوان الرواتب ، وديوان خزائن الكسوة والطراز
وديوان الأحباس وديوان الجيوش التى كانت خليطا عجيبا من
المغاربة والبربر والسودان والترك والغز والديلم . . وكان على
كل ديوان رئيس اسمه الصحاب يخضع للوزير مباشرة ، ويلي

الوزير فى الرتبة صاحب ديوان الإنشاء ثم يعقبه صاحب القلم
الديق الذى يخلو بالخليفة يدرس معه شيئاً من القرآن وبعض
سير الأنبياء كذلك يعلمه تجويد الخط .

وأما صاحب الباب الذى قاد الجيوش فى وجه الأفضل
رضوان فهو من كبار الموظفين ، ويستوى معه فى المركز حامل مظلة
الخليفة وصاحب الرسالة الذى يحمل كتب الخليفة الى الوزير
وموظفى الدولة الكبار . . ويبقى بعد هذا قاضى القضاة ، يليه
داعى الدعاة فالمحتسب ، والى الأخير ترجع كل الأمور فى الأسواق
العامة والطرق .

وفى أول مرة مشى فى زحام القاهرة تلاشى كل ما أعده من
خطط قدر أن ينفذها أمراء الشام . . هذه هى المدينة التى
تصلح أن تكون حاضرة العالم كله ، وهى التى تستطيع أن تواجه
- برغم الأمشاج المتنافرة التى يتكون منها جيشها - كل تحديات
الروم والفرنج . . انها القاهرة الضخمة العامرة التى تترامى
وتتمدد وتكثر فيها الجوامع والمدارس والمشافى وتسهر الليل
كانها لا تنام أبدا .

وانتهت أيامه الأولى - وكان قد قابل فيها الخليفة مرتين -
الى الاقتناع بأن ما ينبغى عمله انما هو وضع كتاب فى « المنازل
والديار » لقد رأى كثيرا من المدن ، وشاهد الصحارى والوديان
والبحار والأنهار ، الا أن ما يمر أمام ناظره فى هذه الأيام شئ
مختلف ، ربما يميزه الاصرار والعزم والوقار والرسوخ وقد يتسم
بالدوام والشفافية ، وان يرغم الجميع على التأمل فيه وطول
التفكير .

لكنه ما مسك القلم حتى هاجت به الذكريات ، ورأى أن من
الضرورى أن يكتب لهؤلاء الذين صانعوه شيئاً . ان معين الدين
كان من غير شك كريما معه ، فلا أقل من أن يخصه بكلمة ، فنادى

على غلامه شجاع الدولة وأملى عليه عدة سطور ثم أعفاه ، وسكن
الى غرفته لا يدخل عليه أحد ، حتى اذا خرج الى أهله نادى على
أخيه يدعو الى أن يسمع تلك القصيدة :

ولوا فلمما رجونا عدلهم ظلموا
فليتهم حكموا فينا بما علموا

ما مر يوما بفكرى ما يريهم
ولا سعت بى الى ما ساءهم قدم

ولا أضعت لهم عهدا ولا اطلعت
على ودائعهم فى صدرى التهم

فليت شعرى بما استوجبت هجرهم
ملوا فصدهم عن وصلى السام

حفظت ما ضيعوا أغضيت حين جنوا
وفيت اذ غدروا واصلت اذ صرموا

حرمت ماكنت أرجو من ودادهم
ما الرزق الا الذى يجرى به القسم

محاسنى منذ ملونى بأعينهم
قذى وذكرى فى آذانهم صمم

وبعد لو قيل لى ماذا تحب وما
تختار من زينة الدنيا لقلت هم

هم مجال الكرى من مقلتى ومن
قلبى محل المنى جاروا أو اجترموا

تبدلوا بى ولا أبغى بهم بدلا
حسبى بهم أنصفوا فى الحكم أم ظلموا

يا راكباً تقطع البيداء همته
والعيس تعجز عما تدرك الهمم
بلغ امرى معين الدين مالكة
من نازح السدار ولكن وده امم
وقل له أنت خير الترك فضلك
الحياء والدين والاقدام والكرم
وانت اعدل من يشكى اليه ولى
شكية أنت فيها الخصم والحكم
هل فى القضية يا من فضل دولته
وعدل سيرته بين الورى علم
تضيع واجب حقى بعد ما شهدت
به النصيحة والاخلاص والخدم
وما ظننتك تنسى حق معرفتى
« ان المعارف فى اهل النهى ذمم »
ولا اعتقدت الذى بينى وبينك من
ود وان أجلب الأعداء ينصرم
لكن ثقاتك مازالوا يعتبرهم
حتى استوت عندك الأنوار والظلم
باعوك بالبخس يیفون الفنى ولهم
لو انهم عدموك الويل والعدم
والله ما نصحوا لما استشرتهم
وكلهم ذو هوى فى الرأى متهم
كم حرفوا من معان فى سفارثهم
وكم سعوا بفساد ضل سعيهم

وذهب بصوته فى هذا الشعر الحزين الى ما كان منه ، كيف
يسلمه وقد كان يظن أنه فى حرم ؟ وهل طمان أولى منه بالوفاء ؟
وهبه خطأ فلماذا لا يعفو ؟ أفيظن أن بطانته الجديدة تستطيع فى
تجريبه لها أن تصل الى شأوه ؟ هل فىهم رجل واحد يفنى غناه
إذا ما جلى حد السيف أو حد القلم الحوادث ؟

— هيهات يا أبا المظفر ...

فمسح أسامة من عينيه دمعة محيرة ، فهناك أشياء كثيرة
يضيق بها صدره ويعجز قلمه عن الإبانة عنها . انه ليس عيبا ،
وما كان الا القوال البليغ ، لكنها الأزمة الطاحنة التى يجتازها ..
وبرغم الجهود التى بذلها ليقول كل شىء ، فقد بقيت أمور ، وانى
يا أخى والله لن أعود الى هذا الأمر أبدا ، وحسبى أن أتحسس
أنباءه وأنا هاهنا ، فان كل ما نالتى من بؤسه نعم !

النديم السياسي

كان للفواطم عادة ارسال عسكر كل ستة أشهر لحفظ عسقلان من الفرنج (١) ، وأراد أسامة في النصف الأول من عام ١١٤٥ أن يذهب مع الحملة الا أنه اضطر الى ملازمة الخليفة حين جاءه خبر بأن عبد المؤمن زعيم الموحيدين في المغرب ضم اليه كل ما كان للفواطم به ، فكاد الخليفة يجن ، والعجيب أنه في ذات الوقت نمت الى أسامة نبأ مصرع ابن عمه يحيى بن سلطان في هجوم الفرنج على بعلبك ، فاستوحش واغتم ، وكانت شيزرت تعرض اذ ذاك للغارات ريمون دى بواتيينه (٢) . فاجتمعت الأحزان على الرجلين ، وراحا يتعاوران- الشكاية . ثم اذا البريد يخبرهما أن عمانوئيل الأول بدأ الزحف على سوريا الشمالية واحتل أنطاكية نفسها ، في الوقت الذي كانت تتناطح فيه قوى ملك غازى ومسعود في شرقي آسيا الصغرى (٣) . فتضاعفت الهموم ، حتى اذا عرضا لغلاء الأسعار - الى درجة أن رطل الزيت الطيب أصبح يباع بثلاثة دراهم وارب القمح بتسعين درهما - كان ثمة مجال لتذكر الآخرة ، والزهادة ، وزيارة أولياء الله . وانتهى اجتماعها الأول بضرورة الغاء الأسمطة السلطانية التي كانت تمدأول النهارو آخره ، ولكن الخليفة عدل عن هذا القرار - لأنه يتنافى مع رغبته في البر - واستبدل به اسقاط عيد النوروز . وفي الاجتماع الثالث رأى أن هذا

(١) النجوم الزاهرة ٥ : ٢٧٩ .

(٢) William of Tyre Vol. II P. 22

(٣) ابن الأثير ٩ : ١٢ وأبو الفداء ٣ : ١٨ و :

J. Cinnamus: Hist., Vol. II, P. 3.

العبد رمز للفاطمية على ما ترتكب فيه من المخازى التى يشغف بها
الفاسقون والفاسقات ، لهذا يبقيه على أن يصوم لله كل خميس مدى
حياته .

وأما أسامة فقد قرر فى اليوم الاول للاعراب عن حزنه أن يقتل
بمن قتل مائة افرنجى بسيفه ، وفى اليوم الثانى أعلن أنه
يستبدل بهم - مؤقتا - عشر سباع ، وفى اليوم الثالث قال انه يكون
من الخير اعتزال الناس فى يوم صيام الخليفة .

وقبل أن تعود صائفة عسقلان كانا يستشيران قاضى القضاة
فيما عاهدا الله عليه ، فأفتى بالزامهما به أو عتق أحد العبيد .
وهكذا وجد أسامة نفسه يطلق غلامه شجاع الدولة ، وأما الخليفة
فأبى الا أن يطلق عشرة . . فكان ما ضاقا به تسرية عن غيرهما ،
ورب ضارة نافعة ! واذا كان أسامة قد عود الخليفة على أن يسمعه
أطرافا من الوقائع التى شهداها ، فقد ذكر له - بالمناسبة - واقعة
جمعة النميرى الذى أرمدت عينه زمنا حتى ظن أنها لاحتقانها الشديد
تلفت ، ولكن وقعة مع الافرنج أنقذته .

فقد حدث أن أغارت على شيزر خيل كفر طاب فى قلة ، ففزعا
اليهم طامعين فيهم وقد كمنوا لنا كميناً ، فاجتاز جمعة النميرى بواحد
منهم ، فخطا اليه وضربه على رأسه وفوقه قلنسوة ، فقطعها وشق
جبهته وجرى منها الدم ، وبقيت مفتوحة مثل فم السمكة ، فليقيته
ونحن فيما نحن فيه من الافرنج فقلت :

- يا أبا محمود ما تعصب جرحك ؟

قال :

- ما هذا وقت العصائب وشد الجراح . . .

وكان لا يزال على وجهه خرقة سوداء وهو رمد ، وفى عينه عروق
حمر . . فلما أصابه ذلك الجرح ونزف زال كثير مما كان يشكو

وبرىء ، وأما الافرنج فانهم اجتمعوا بعد ما قتلنا منهم من قتلوا ،
وقفوا فتقابلنا ، فجاءنى ابن عمى ذخيرة الدولة أبو القنا خطام
فقال :

- يا بن عمى معك جنيتان وأنا على هذا الفرس الحطم ؟
فقلت لغلامى :

قدم له الحصان الأحمر !

فقدمه ، وساعة ما استوى فى سرجه حمل على الافرنج وحده ،
فأفروا له حتى توسطهم ، فرموه وطعنوا الحصان ، وقلبوا
قنطارياتهم وصاروا يركشونه بها وعليه زردية حصينة ما تعمل
رماحهم فيها ، فتصايحنا :

- صاحبكم .. صاحبكم ...

وحملنا عليهم فهزمناهم عنه ، واستخلصناه وهو سالم ،
وأما الحصان فمات فى يومه ، وتلك الوقعة كانت لسعادة جمعة
وشفاء عينيه ، فسبحان القائل « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير
لكم » .

وتنوع الحديث من الطعان الى القنص ، الى اللغة والشعر ، الى
تاريخ العرب الذين حملوا راية الاسلام أول ما حملت وينبغى أن
تظل فى أيديهم ليدفعوا المغيرين عن أرضهم ، قال له :

فهل اذا تقدم اليك عماد الدين بعد أن انتزع الرها من جوسلان
اللعين (١) . وقال ندفع الافرنج تفعل يا مولاي ؟

(١) كان ذلك عام ١١٤٤ ويعد فى نظر جميع المؤرخين نهاية الفتح اللاتينى،
وقد اعتبته مرحلة أطلقوا عليها زورا عهد الردة الاسلامية والاولى عهد
الجهاد بداه عماد الدين زنكى وختمه الناصر صلاح الدين ، وثمة مرحلة
ثالثة صاحبت القرن الثالث عشر الميلادى ، وفيها قضى خلفاء صلاح الدين
والمالিক على الصليبيين فى الشرق العربى .

- فأجاب :

- أنا لا أوتى من هذه الثغرة •

فتساءل أسامة :

كيف يا مولاي ؟

فقال الخليفة :

- لمودود وايلغازي بعث لهما المستنصر رحمه الله في شيء كهذا

فراح عليه كما أخبرت أقبح رد ، أتدرى لماذا ؟

ولم يحر أسامة جوابا فقال الخليفة :

- لأننا شيعة وكان للسنين وحدهم شرف الجهاد •

قال أسامة :

- ولكننا اليوم نحتاج الى وحدة يدعمها المسلمون على مختلف

مذاهبهم •

فقال الخليفة :

- اسمع يا أبا المظفر لن يطرد الفرنجة الملاحين الا اذا قامت دولة

كدولتنا في وجههم •

فتساءل أسامة :

- ولماذا لا تفعل ؟

فأجاب :

- لأننا يوم نضع أقدامنا فوق أرض الشام سنجد الأمراء

المسلمين أول من يتصدى •

وأحسن أسامة أن الحافظ على حق ، فمن تراه يرضى بأن يكون عاملا من عمال أتابك الموصل أو أتابك دمشق ؟ وهل يقبل عماد الدين - مثلا - أن ينضوى تحت علم مسعود لمحاربة شياطين أنطاكية وقلعتهم ؟ بل ترى ينزل عمه عن شيزر بحجة تأسيس دولة قوية موحدة تقدر على مطاردة الصليبيين الى بلادهم التي جاءوا منها ؟ على أنه بينما أصبح اسم عماد الدين في الشام ملء الأفواه والأسماع فان نجاحه في احتلال الرها أثار الكمد في قلب الحافظ وعدم الارتياح في نفس أسامة ، فقد أتيح للغول الذي كان هامدا أن يتحرك . وبدأ الأمراء المسلمون - الذين كانوا لا يزالون مستقلين حتى ذلك الوقت - يوجسون خيفة من فقدان أملاكهم ، بل ثارت نائرة بعضهم فصبوا أحقادهم عليه وأوشك أقوام المسلمين على الضياع .

وفي زيارة لدار الحكمة - وهي التي أسسها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ - أدخل داعي الدعاة كلا من الحافظ وأسامة بعد أن طاف بهما في ردهة المطالعة والمكتبة الى خزانة هائلة بها آلاف الكتب ، فقال الحافظ :

- ها هنا يا أبا المظفر كلام المشاركة الذي يخالف مذهبنا . فعلق أسامة بعبارة غامضة أيد بها وجهة نظر الخليفة ، فاستطرد هذا قائلا :

- وحتى يتمكن دعائنا من الرد عليهم سنظل مفترقين .

وكانت العبارة مؤلمة للغاية ، فأسلمت أسامة الى اليأس ، لأنه كان على ايمان بأن الخلف بين الفواطم والسنين - وقد نشأ على التسليم بوجوده - ليس كبيرا الى الحد الذي يريد الحافظ أن يبينه بالدليل المحسوس . فقد قرأ عن الامامية التي ينتمى اليها الفواطم ، فرآها في جملتها لا تتعارض مع حسن العقيدة بل ان الاسماعيلية وهي احدى شعب الامامية الألصق بالفواطم من غيرها ، لا خطر منها

الا اذا اشتطت في التأويل لأنها عن طريقه تستطيع بسهولة أن
تكيف الدين على النحو الذى يتفق ومالها من عقول أو ميول .
ومع ذلك فان الحافظ لم يكن كنديه تماما ، وعبر عن وجهة
نظره بقوله :

— ان ما يعنى أقوام المسلمين اليوم هو الافرنج ، أليس كذلك ؟
اذن فسنأخذ على عاتقنا زحزحتهم ، لأن مصر وحدها تستطيع
ذلك ، وستفعل ان شاء الله .

وقد كان على أكبر الظن أكثر تفاؤلا مما ينبغى — على الأقل حتى
ذلك الزمن — لأن سقوط الرها أثار الغرب ، فهب القديس برناردوس
يطوف بلاد الفرنج مستثيرا الهمم ، فاستجاب الملوك هذه المرة
— لا الأمراء — وتزعم القيادة كونراد الثالث امبراطور ألمانيا (١) .
وفي سنة ١١٤٦ قتل عماد الدين بضربة خنجر فتمكن جوسلان من
استعادة الرها ، فلم يجد خليفته الملك العادل نور الدين زنكى بدا
من أن يشدد ضرباته عليه وعلى ريمون دى بواتييه ، وهكذا وجد
ملوك أوروبا مسوغا للتدخل . غير أنهم بدءوا بدمشق فوصل اليها
كونراد سنة ٥٤٣ / ١١٤٨ على أن يمهده عمانوئيل ويضرب حلب
وغيرها من مدن الشمال ، الا أن شيئا من ذلك لم يقع ، فانهزم
أمام معين الدين أنر وجلا عن المدينة مدحورا (٢) .

أما الأمور في مصر ، فكانت تمضى كما اعتادت أن تمر . ثمة
صراع على السلطة ومؤامرت تدبر ، وأمراء يتنازعون قيادة فرق
الجيش ، والخليفة يتعبد أو يلهو أو يخرج للقصص ، ومعه أسامة دائما

(١) ابن الأثير في الكامل ٩ : ٢٠ وأبو الفداء في المختصر من أخبار
البشر ٣ : ٢٠ .

R. Grousset: Croisades, Vol. II, PP. 230-233.

Ibid, II, 250-268. (٢)

لا يكاد يخوض معه فيما يجرى حتى يرده الى ما هما فيه ، وفي احدى
المرات قال لمن حوله :

— أى شىء شغل هذا الا القتال والصيد ؟

ومع هذا فقد أبى أسامة الا أن يقول الكلمة الأخيرة قبل أن
يموت الحافظ . وكان قد تذاكرا حسن بلاء معين الدين .

— لقد خرج عسكر دمشق وأهلها لقتال ملك الأمان ، وفي
جملتهم الفقيه الفندلاوى والزاهد الحلحولى فلما قارباهم قال الفقيه
للحلحولى « أما هؤلاء الفرنج ؟ » قال بلى — قال « فالى متى نحن
وقوف » قال « سر على اسم الله تعالى » فتقدما وقاتلا حتى قتلا . .
اننا نريد أن نموت ميتتهما ان شاء الله !

كرسى الوزارة

توالت الأنباء بهجوم بلدوين الثالث - ملك أورشليم الجديد - على طبرية والتي كان الفواطم يملكونها ، فاستدعى أسامة من كوم أشفين ونزل الدار السلطانية كعادة وزراء العصر دون أن يرى الخليفة في يومه لمرضه . وبينما هو في انتظاره شبت فتنة كانت نائمة بين فرق السودان المختلفة ، فوقف عبيد الحافظ - وهم الريحانية - في جانب ، وفي جانب آخر الفرجية والاسكندرانية والجيوشية الذين ضموا اليهم قوم من صبيان الخاص .

فاجتمع من الفريقين خلق عظيم - على ما يذكر أسامة في مذكراته - وغاب عنهم الحافظ ، وترددت اليهم رسله وحرص على أن يصلح بينهم ، فما أجابوا الى ذلك وهم معه في جانب البلد . فأصبحوا وقد اتفقوا في القاهرة ، فاستظهرت الجيوشية وأصحابها على الريحانية فقتلت منهم في سويقة أمير الجيوش ألف رجل حتى سدوا السويقة . ونحن نبيت ونصبح بالسلاح خوفا من ميلهم علينا ، فقد كانوا فعلوا ذلك قبل مجيئى الى مصر . وظن الناس لما قتل الريحانية أن الحافظ ينكر ذلك ويوقع بقاتليهم ، ولكنه كان مريضا فمات بعد يومين وما انتطح فيها عنزان !

وكان الظافر بأمر الله (١) الخليفة الجديد حدثا فطمع كبار الفاطمية فيه ، وبالنسبة لأسامة لم يوله الا بعض ما كان يوليه

(١) النجوم الزاهرة ٥ : ٢٨٨ وما بعدها وأبو الفداء ٣ : ٢٨

أياه الحافظ ، فكان لابد من أن يبحث عن الذى يبسط عليه ظله ليحميه فى تلك الظروف العصيبة التى اختل فيها حبل الأمن فى البلاد .

وهنا بدأ يربط مصيره بآبن السلار والى البحيرة والاسكندرية الطموح ، فسافر اليه - وكان الظافر بأمر الله قد اختار وزيره نجم الدين بن مصال - فوجده غاضبا لذلك ، كذلك وجد عنده بعض كبار الموظفين يشجعون على أن يجبر الخليفة - ذلك والحدث اللاهى - على استبداله بآبن مصال الشيخ الهرم . وانتهى هذا الى الظافر ، فجمع أمراء فى مجلس الوزارة ونفذ الينا زمام القصور يقول :

- يا أمراء : هذا نجم الدين وزيرى ونائبى ، فمن كان يطيعنى فليطعه ويمثل أمره .

فقال الأمراء :

- نحن ممالك مولانا سامعون مطيعون .

فرجع الزمام بهذا الجواب ، فقال أمير من الأمراء شيخ يقال له لكرون :

- يا أمراء ، نترك على بن السلار يقتل ؟

قالوا :

- لا والله ...

قال :

- فقوموا !

فنفروا كلهم وخرجوا من القصر . شدوا على خيلهم وبغالهم وخرجوا الى معونة سيف الدين بن السلار ، فلما رأى الظافر ذلك وغلب عن دفعه أعطى نجم الدين بن مصال مالا كثيرا وقال « أخرج

الى الحوف ، اجمع واحشد وانفق فيهم ، وادفع ابن السلار « فخرج لذلك .

ودخل ابن السلار القاهرة ، ودخل دار الوزارة ، واتفق الجند على طاعته فأحسن اليهم ، وأمرني أن أبيت أنا وأصحابي في داره ، وأفردي موضعاً في الدار أكون فيه ، وابن مصال في الحوف قد جمع من لواتة - وهي قبيلة من البربر - ومن جند مصر ومن السودان والعربان خلقاً كثيراً .

وقد خرج عباس ركن الدين - وهو ابن امرأة علي بن السلار - ضرب خيمة في ظاهر القاهرة ، فغدت سرية من لواتة فيهم نسيب لابن مصال وقصدوا مخيم عباس . فانهزم عنه جماعة من المصريين ، ووقف هو وغلماؤه ومن صبر معه من الجند ليلة مخايستهم ، وبلغ الخبر الى ابن السلار فاستدعاني في الدار وقال :

- هؤلاء الكلاب جند مصر قد شغلوا الأمير بالفوارغ حتى عدا اليه قوم من لواتة سباحة فانهزموا عنه ودخل بعضهم الى بيوتهم بالقاهرة والأمير واقفهم .

قلت :

- يا مولاي ، نركب اليهم في سحر فما يضحى النهار الا وقد فرغنا منهم ان شاء الله تعالى .

قال :

- صواب ، أبكر في ركوبك .

فخرجنا اليهم من بكرة ، فلم يسلم منهم الا من سبحت به فرسه في النيل ، وأخذ نسيب ابن مصال وضرب عنقه . وجمع العسكر مع عباس وسيره الى ابن مصال ، فلقاه على دلاص ، فكسرهم وقتل ابن مصال ، وقتل من السودان وغيرهم سبعة عشر ألف رجل . وحملوا رأس ابن مصال الى القاهرة ، ولم يبق لسيف الدين

من تعانده ولا تشاqqه . وخلع عليه الظافر خلع الوزارة ، ولقبه
الملك العادل ، وتولى الأمور .

كل ذلك والظافر منحرف عنه ، كاره له ، مضمر له الشر .
فعمل على قتله ، وقرر مع جماعة من صبيان الخاص وغيرهم ممن
استمالهم وأنفق فيهم أن يهاجموا داره ويقتلوه . وكان شهر
رمضان ، والقوم قد اجتمعوا بالقرب من دار الملك العادل ينتظرون
توسط الليل واقتراق الأصحاب ، وأنا تلك الليلة عنده . فما فرغ
الناس من العشاء واftرقوا - وقد بلغه الخبر من بعض المعاملين
عليه أحضر رجلين (١) من غلمانهم وأمرهم أن يهجموا عليهم الدار
التي هم فيها مجتمعون وكانت الدار لما أراد الله من سلامة بعضهم
لها بابان ، الواحد قريب من دار العادل ، والآخر بعيد . فهجمت
الفرقة الواحدة من الباب القريب قبل وصول أصحابهم إلى الباب
الأخر ، فانهزموا وخرجوا من ذلك الباب .

وجاءني منهم في الليل من صبيان الخاص نحو عشرة رجال ،
كانوا أصدقاء غلماني نخبتهم . وأصبح البلد فيه الطلب لأولئك
المنهزمين ، ومن ظفر منهم قتل !

وعلى هذا النحو يمضي أسامة في مذكراته ، فاذا كنا أسقطنا
بعض المواقف التي ذيل بها تلك الوقعة الأساسية فلأنها لا تقدم
شيئا أكثر من هذا . فقد ظهر بوضوح اختلال الأحوال في تلك
الفترة ، وعلى الرغم من أن الأزمة الوزارية لم يطل أمدها فان
ابن السلار أبى إلا أن يستنجد بالملك العادل نور الدين . وكان هذا في
حد ذاته دليلا على ضعف حكومة الفواطم ، واستغل الفرنج هذا
الضعف فبدأوا يوجهون ضرباتهم إليها طامعين في الاستيلاء عليها ،

(١) رجلين : بتسكين ثانيه جماعتين من المقابلة الرجالة أى الذين
لا يركبون .

كانهم عرفوا أن ضمان بقائهم فى بيت المقدس مرهون بتحطيم قوة مصر أولا .

والعجيب أن أسامة نصح ابن السلار بالابتعاد عن نور الدين ، ربما لأنه كان يحس بأنه ليس خيرا من أبيه ، وربما لأنه كان يؤمن بأنه لو امتدت يده الى الديار المصرية فستمسك بتلابيبه هو - لموقفه من أبيه فى معركة دمشق - أول ما تمسك ، ولكنه عندما رأى المحذور يقع قال لأخيه :

- علينا يا أبا عبد الله أن نبحث لنا عن وطن جديد .

ولما كانت هناك علاقة قامت بينه وبين طلائع بن رزك والى منية بنى خصيب (١) قال :

- وتنسى ما بيننا وبين أبى الغارات من أسباب تحميننا ؟

ولحسن حظه أن الفتنة أخمدت وان قتل فيها كثير من السودان والمصريين ، وكانت النتيجة ارتفاع نجم أبى الفضل عباس ابن أبى الفتوح ابن زوجة الوزير الجندية الذى حمل اليه رأس ابن مصال ، وشرع مع أسامة (٢) - الذى أنقص ابن السلار مخصصاته - يضعان الخطط للمستقبل واضعين فى تقديرهما ثلاثة أمور :

أن الظافر لا أمل فيه لأنه كان كثير اللهو ، يتفرد بالجوارى ويسمع الى المغاني (٣) .

أن الملك العادل نور الدين هو المنافس الوحيد للفرنج فى غزو مصر ، ولابد من استغلال هذا الموقف لصالح الديار المصرية .

(١) منية بنى خصيب : هى المنيا حاليا ، نسبت أولا للخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر أيام الرشيد فى اقليم الاشمونيين .

(٢) يراجع خبر اتصال أسامة بركن الدين عباس فى النجوم الزاهرة ٣٠٩: ٥ .

(٣) النجوم الزاهرة ٥ : ٢٨٨ وما بعدها .

ان الملك العادل أبا الحسن بن السلار كثيرا ما يظهر الضغن ،
ولذلك يجب مراقبة الطامعين في منصبه وكسرهم ، والا فركن الدين
عباس بن أبي الفتوح أولى الجميع بالوزارة .

وليس أحد يدري كيف انتهى المغامران الى تلك النتيجة ، وهل
أتبعها بخطوات تنفيذية معينة ، فان أسامة لا يذكر شيئا في
حين يشير بعض من كتب عنه الى أنه « انقلب » على ابن السلار
وأخذ « يحرض » ابن زوجته عليه حتى حانت اللحظة الفاصلة .

ويتطوع ابن ميسر في « أخبار مصر » ببسط جانب من المؤامرة
وهي في حيز التنفيذ بعد أن مرت سنون ، ففي مضاف عام
٥٤٧ / ١١٥٣ لحفظ عسقلان من الفرنج عقد لواء القيادة لركن الدين
عباس بن أبي الفتوح وصحب معه أسامة ، فراحا يتذاكران في
بلييس حسن القاهرة وطيبها والرجال القائمين عليها ، وما كان
من أمر ابن السلار الذي جرد ركن الدين من كثير مما يستحقه .
فأخذ عباس يلوم عمه زوج أمه ، فقال له أسامة :

— لو أردت لكنت أنت سلطان مصر .

فقال :

— كيف الحيلة ؟

فأجاب قائلا :

— هذا ولدك ناصر الدين نصر بن عباس بينه وبين الظافر مودة
عظيمة ، فخطبه على لسان ولدك أن تكون أنت السلطان موضع
عمك فانه يختارك ويكره عمك ، فان أجابك فاقتل عمك .

وقبل أن يتم أى شىء زحف نور الدين على دمشق (١) فشرع الفرنج فى ضرب طبرية طامعين فى بعض ما يطمع فيه الأتابك الخطير ، فلم يجد ابن السلار الا أن « يأمر » أسامة بالتوجه الى نور الدين فى مهمة سرية فصدع وهو متخوف !

(١) تمكن نور الدين محمود من انتزاع دمشق سنة ١١٥٤ من آخر سلالة طفتكين مزيلا بذلك الحاجز القائم بينه ومدينة القدس - يراجع كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ١ : ٧٧ وتاريخ أبى الفداء ٣ : ٢٩ وتاريخ ابن الأثير ٩ : ٤٥ .

(٧) صفحات من مذكراته

تقدم الى الملك العادل بالتجهيز للمسير الى الملك العادل
نور الدين وقال :

- تأخذ معك مالا وتمضى اليه لينازل طبرية ويشغل الفرنج ،
لنخرج من هاهنا نخرب غزة •

وكان الافرنج خذلهم الله قد شرعوا فى عمارة غزة ليحاصروا
عسقلان ، فقلت :

- يا مولاي فان اعتذر أو كان له من الأشغال ما يعوقه ، بأى
شئ تأمرنى ؟!

قال :

- انزل على طبرية فأعطه المال الذى معك ، وان كان له مانع
فديون (١) من قدرت عليه من الجند واطلع الى عسقلان فأقم
بها فى قتال الافرنج ، واكتب الى بوصولك لأمرى بما
تعمل •

ودفع الى ستة آلاف دينار مصرية وحمل جمل ثياب ديبقى
وسقلاطون ومسنبج ودمياطى وعمائم ، ورتب معى قوما من العرب

(١) ديوان : بفتح فسكون ففتح فعل فارسى ، من الديوان ، والمقصود
ديوان الجند ، بمعنى أنه يجمع المقاتلين ويسجلهم جنودا فى الديوان •

أدلاء وسرت وقد أزاح علة سفرى بكل ما احتاجه من كثير وقليل ،
فلما دنونا من الجفر - وهى واحدة بين مصر وفلسطين - قال لى
الأدلاء

- هذا مكان لا يكاد يخلو من الافرنج .

فأمّرت اثنين من الأدلاء ركبا مهريين وسارا قدامنا الى الجفر ،
فما لبثا أن عادا وقالوا :

- الفرنج على الجفر

فوقفت وجمعت الجمال التى عليها ثقلى ورفاقا من السفارة
كانوا معى ورددتهم الى الغرب ، وندبت ستة فوارس من جماليكى
وقلت :

- تقدموا وأنا اثركم .

فساروا يركضون وأنا أسير خلفهم ، فعاد الى واحد منهم وقال :

- ما على الجفر أحد ، ولعلمهم أبصروا عربانا .

وتنازع هو والأدلاء ، فنفذت من رد الجمال وسرت ، فلما
وصلت الجفر وفيه مياه وعشب وشجر قام من ذلك العشب رجل
عليه ثوب أسود فأخذناه . وتفرق أصحابى فأخذوا رجلا آخر
وامرأتين وصبيانا ، فجاءت امرأة منهم مسكت ثوبى وقالت :

- يا شيخ ، أنا فى حسبك !

قلت :

- أنت آمنة ، مالك ؟

قالت :

- أخذ أصحابك لى ثوبا وناهقا ونايحا وخرزة .

قلت لفلمائى :

- من كان أخذ شيئا يرده .

فأحضر غلام قطعة كساء لعلها طول ذراعين ، فقالت :

- هذا الثوب !

وأحضر آخر قطعة سندروس فقالت :

- هذه الحرزة !

- قلت :

- فالحمار والكلب ؟

قالوا :

- الحمار قد ربطوا يديه ورجليه وهو مرمى فى العشب ،

والكلب مفلوت يعدو من مكان الى مكان .

- فجمعتهم ، ورأيت بهم من الضر أمرا عظيما ، قد يبست جلودهم

على عظامهم ، فقلت :

- أيش أنتم ؟

قالوا :

- نحن من بنى أبى .

وبنو أبى فرقة من العرب من طيء لا يأكلون الا الميتة ويقولون

« نحن خير العرب ما فينا مجذوم ولا أبرص ولا زمن ولا أعمى ،

واذا نزل بهم الضيف ذبحوا له وأطعموه من غير طعامهم ، قلت :

- ما جاء بكم الى هنا ؟

قالوا :

- لنا بحسما كتول ذرة مظمورة جيئنا نأخذها .

قلت :

- وكم لكم هنا ؟

قالوا :

- من عيد رمضان لنا هاهنا ، ما رأينا الزاد بأعيننا .

قلت :

- فمن أين تعيشون ؟

قالوا :

- من الرمة ندقها ونعمل عليها الماء وورق القطف ونتقوت به .

قلت :

- فكلابكم وحمركم ؟

قالوا :

- الكلاب نطعمها من عيشنا والحرر تأكل الحيشيش

قلت :

- فلم لا دخلتم الى دمشق ؟

قالوا :

- خفنا الوبأ ...

ولا وبأ أعظم مما كانوا فيه ، وكان ذلك بعد عيد الأضحى ،
فوقفت حتى جاءت الجمال . وأعطيتهم من الزاد الذي كان معنا ،
وقطعت فوطه كانت على رأسي أعطيتها للمرأتين ، فكادت عقولهم تزول
من فرحهم بالزاد وقلت :

- لا تقيموا هنا يسبيكم الافرنج .

ووصلنا في طريقنا الى بصرى ، فوجدنا الملك العادل نور الدين على دمشق . وقد وصل الى بصرى الأمير أسد الدين شيركوه . فسرت معه الى العسكر ، فوصلته ليلة الاثنين ، وأصبحت فتحدثت معه بما جئت به ، فقال لى :

— يا أبا المظفر ، أهل دمشق أعداء والافرنج أعداء ما آمن منهما إذا دخلت بينهما .

قلت له :

— فتأذن لى أن أديون من محرومى الجند قوما آخذهم وأرجع ، وتنقذ معى رجلا من أصحابك فى ثلاثين فارسا ليكون الاسم لك ؟

قال :

— افعل

فديونت الى الاثنين الآخر ثمانمائة وستين فارسا وأخذتهم ، وسرت فى وسط بلاد الافرنج نزل بالبوق ونرحل بالبوق . وسير معى نور الدين الأمير عين الدولة الياروقى فى ثلاثين فارسا ، فاجتزت فى طريقى بالكهف والرقيم فلما وصلنا عسقلان سحرا ، وضعنا أثقالنا عن المصلى ، وصبحنا الافرنج عند طلوع الشمس ، فخرج إلينا ناصر الدولة ياقوت والى عسقلان فقال :

— ارفعوا .. ارفعوا أثقالكم .

قلت :

— تخاف لئلا يقلبنا الافرنج عليها ؟

قال :

— نعم !

قلت :

— لا تخف ، هم يروننا في البرية ويعارضوننا الى أن وصلنا الى عسقلان ما خفناهم ، نخافهم الآن ونحن عند مدينتنا ؟

ان الافرنج وقفوا على بعد ساعة ، ثم رجعوا الى بلادهم .

جمعوا لنا ، وجاءونا بالفارس والراجل والخيم يريدون منزلة عسقلان ، فخرجنا اليهم وقد يرز راجل عسقلان ، فدرت على سرب الرجالة وقلت :

— يا اصحابنا ، ارجعوا الى سلوركم ودعونا واياهم ، فان نصرنا عليهم فأنتم تلحقوننا ، وان نصروا علينا كنتم أنتم سالمين عند سوركم !

فامتنعوا من الرجوع ، فتركهم ومضيت الى الافرنج ، وقد حطوا خيامهم ليضربوها . فاحتطنا بهم ، وأعطيناهم عن طي الخيام ، فرموها كما هي منشورة وساروا راجعين . فلما تفسحوا عن البلد تبعهم من الطفوليين أقوام ما عندهم منعة ولا غناء ، فرجع الافرنج . حملوا على أولئك فقتلوا منهم نفرا ، فانهزمت الرجالة الذين رددهم فما رجعوا ورموا تراسهم . ولقينا الافرنج فرددناهم ومضوا عائدين الى بلادهم وهي قريبة من عسقلان . وعاد الذين انهزموا من الرجالة يتلاومون وقالوا :

— كان ابن منقذ اخبر منا ، قال لنا ارجعوا فما فعلنا حتى انهزمنا واقتضحنا .

وكان أخى عز الدولة أبو الحسن على في جملة من سار معي من دمشق هو وأصحابه الى عسقلان . وكان يقاتل للدين لا للدنيا ، فخرجنا يوما من عسقلان نريد الغارة على بيت جبريل وقتالهم ، فوصلنا وقاتلناهم . ورأيت عند رجوعنا الى البلد غلة كبيرة ، فوقفت في أصحابي وقدحنا نارا وطرحنها في البيادر ، وصرنا ننتقل من موضع الى موضع ، ومضى العسكر . تقدمنى ،

فاجتمع الافرنج - لعنهم الله من بيت الحصون وهى كلها متقاربة وفيها خيل كثيرة للافرنج ، لمغادة عسقلان ومراوحتها ، وخرجوا على أصحابنا فجاءنى فارس منهم يركض وقال :

- قد جاء الافرنج

فسرت الى أصحابنا وقد وصلهم أوائل الفرنج ، وهم لعنهم الله أكبر الناس احترازا فى الحرب . فصعدوا على رابية ووقفوا عليها ، وصعدنا نحن على رابية وبين الرايتين فضاء . أصحابنا المنقطعون وأصحاب الجنائب عبور تحتهم ، لا ينزل اليهم منهم فارس خوفا من كمين أو مكيدة . ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم ، ونحن مقابلهم فى قلة وعسكرنا قد تقدمنا منهمذين .

وما زال الافرنج وقوفا على تلك الرابية الى أن انقطع عبور أصحابنا ، ثم ساروا إلينا ، فاندفعنا بين أيديهم والقتال بيننا لا يجدون فى طلبنا . ومن وقف قرسه قتلوه ، ومن وقع أخذوه ، ثم عادوا عنا . وقدر الله سبحانه لنا السلامة باحترازهم ، ولو كنا فى عددهم ونصرنا عليهم - كما نصرنا علينا - كنا أفيناهم .

فأقمت بعسقلان لمحاربة الافرنج أربعة أشهر ، هاجمنا فيها مدينة - يبنى - وهى فرضة بحرية فى فلسطين - وقتلنا فيها نحو مائة نفس ، وأخذنا منها أسارى .

وجاءنى بعد هذه المدة كتاب الملك العادل يستدعيني ، فسرت الى مصر وبقي أخى عز الدولة أبو-الحسن على بعسقلان . فخرج عسكرها الى قتال غرة فاستشهد - فى شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وخمسمائة - وكان من علماء المسلمين وفرسانهم وعبادهم .

صراع فى القاهرة

لم يدر أسامة بسفره الى نور الدين ماذا حدث فى القاهرة حين دعاه ابن السلار للعودة ، فأخبر أن الملك العادل لما علم برجوع ناصر الدين نصر بن عباس أنكر عليه ترك أبيه فى بلبيس ، ورماه بالنزق والميل الى العبث — ميل الظافر تماما — ظانا أنه لم يرجع الا ضجرا من المقام فى العسكر .

وكان من الطبيعى أن يطلب اليه اللحاق بأبيه ثانية ، غير أنه تلكا . وفى غفلة من الوزير وصل الى الظافر ، وأطلععه على ما جاء من أجله . فرحب الخليفة بالفكرة وأبدى استعداداه لمدة بجماعة من غلمانه يهاجمون دار جدته — فهى أم أبيه — حيث اعتاد أن يتردد عليها ، ويدخلها بدون إذن من أحد .

وفى اليوم المقرر — وكان أسامة فى طريقه الى القاهرة — دخل العادل الى زوجه ونام ، واتصل بنصر أستاذ من أستاذى الدار وأعلمه بنومه . فهجم عليه فى ستة من أتباعه ، وقطع رأسه ، ثم حمله الى الظافر . وفى دار العادل من مماليكه وأصحاب النوبة نحو الف رجل — كانوا فى دار السلام وقتل هو فى دار الحرم — خرجوا من فورهم للاشتباك بجند الظافر ونصر بن عباس ، وظلوا معهم فى صراع مرير حتى أمر الحافظ فرفعت رأس الوزير على رمح فى السادس من المحرم سنة ١١٥٣/٥٤٨ .

عند ذاك انقسم المتقاتلون الى قسمين : قسم خرج من باب القاهرة الى ركن الدين عباس لخدمته وتنفيذ ما يطلب ، وقسم قصد الى ابنه نصر وقلوا الأرض بين يديه ، وهكذا دخل أسامة القاهرة وهى مهددة بحرب أهلية يشعل نارها أب وابنه !

وعلى الرغم من أن الظافر كان يرى أن يتولى نصر بن عباس الوزارة من بعد ابن السلار - وأحب ذلك أسامة الذى عرف بأنه صاحب فكرة التآمر - فان الظروف اقتضت أن يستوزر الخليفة ركن الدين ، ويفوض اليه الأمر ، ويخلع عليه . الا أنه لا يقر له قرار . فمن ناحية يرى الخليفة يزداد تعلقا بابنه نصر ، فاذا خطر له أن يوقع به - على عادة الخلفاء الفواطم في ضرب الوزراء بعضهم ببعض - فلا شك أنه سيسقط ابنه بعد أن يوغر صدره عليه . ومن ناحية أخرى يرى الأمراء يستوحشون من صديقه أسامة حتى هموا بقتله لولا أن نبهه أبو الفارات طلائع بن رزيق فتحصن ، وأن يكونوا لا يكفون عن تحذيره منه .

والى جانب هذا فان الرجلين - أسامة ونصرا - يجتمعان معا ويتساران وكلاهما مغامر وعلى استعداد لركوب المخاطر ، فما يستبعد أن تكون ثمة مؤامرة جديدة تدبر في الظلام .

ولقد كان يعلم عن أسامة أنه سيء الظن بالظافر ، وكان قد أعرب له عن يأسه من أنه قد يتخذ أية خطوة ايجابية لراحة نير الافرنج وزحزحتهم عن مواقفهم . ومصر بمدنها وطاقاتها الكبيرة وحقولها التى أصابها الدمار من جراء المعارك التى تشنها فرق الجيش : لا يمكن أن تقف على قدميها وفيها هذا الفاطمى المتهتك . لكن أسامة فى سبيل أن يحقق ما يريد - ولم يكن أحد يعلم تماما ماذا يريد - لا يجد مانعا من أن يؤازره .

انه لن يسمح بذلك .

ان ركن الدين عباس بن أبى الفتوح لا يمكن أن يتسامح فى أن
يقف مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة فى وجهه .

المهمة قاسية ، ولكنها جليلة وضرورية ، واذن لابد من أن
يسلمه للأمراء .. لكن كيف ؟

ومرت أشهر ...

وفى حساب ركن الدين سنوات من الفكر والعناء والمراقبة
ورصد الخطى ، حتى جاء يوما لعجبه الشديد يقول :

— كيف تصبر على ما يقول الناس فى ولدك يا مولاي ؟
قال عباس :

— ماذا يقولون يا أبا المظفر ؟
فأجاب :

يقولون ان الخليفة يفعل به ما يفعل ؟

ولقد رفض عباس أن يعلق على القالة ، ولكنه انزعج شيئا .
انه لا يزال يذكر يوم أعلن أن الظافر أقطع ولده نصرا قرية قليوب
كلها ، لقد دخل عليه وقال وأسامة يسمع :

— أقطعنى مولانا قليوب .

فتطلع أسامة اليه طويلا متفرسا فى ملامحه الجميلة وقال
بسخرية :

— ما هى فى مهرك بكثير !

لقد بدا له على نحو من الانحاء أن من الضرورى بعيد ذلك
اقصاء نصر عن الظافر ، فان أعداءه أولئك الذين لا يطبقون رؤيته
فى دست الوزارة فى استطاعتهم أن يسلكوا جميع المسالك ، والتأثير
على أقرب الناس اليه مسلك سهل طروقه ، فقال :

— انى بعيد النظر يا ابا المظفر وقد اتخذت أهبتى ، وأقسم لك
انه مهما تكن مقدرة هؤلاء الذين يضمرون لى الكراهية
فانهم لن ينتزعوا منى السلطان ، وليفعل الظافر ما يريد .
وهنا بدت على أسامة دلائل عدم المبالاة ، فلم يفتن الوزير
الى الحباله التى نصبها له ، وقال :

— فى وسعك أن تسكنه يا مولاي .

ثم سكت ، ورفض بالتالى أن يمكث معه ، فاستأذن للخروج .
الا أنه لم يكذب نفسه للراحة حتى قدم عليه غلام عباس يدعو
للقصر ، وهناك وجد الأب والابن يتعاتبان ، فلما رأياه اشتاط
عباس مرغيا مزبدا فقال أسامة :

— أما تسمح حججه يا مولاي ؟

فانفجر قائلا :

— انه يرفض الابتعاد عن الظافر .

قال أسامة :

— دعه يا مولاي فقد يفيدك وجوده .

فتساءل صارخا :

— كيف .. كيف وهذا غر ان لم يكن فيه العته والجنون ؟

وأطرق نصر لا ينبس ، فقال أسامة :

— يا مولاي الأفضل .. كم تلوم مولاي ناصر الدين وتوبخه

وهو ساكت ؟

اجعل الملامة لى ، فانا معه فى كل ما يعمل ما اتبرأ من خطئه

ولا صوابه .

قال عباس :

— ما شاء الله ...

ولم يعطه أسامة فرصة أخرى للكلام ، فاستطرد بسرعة :

— ما أساء الى أحد من أصحابك ولا فرط في شيء من مالك ولا قدح في دولتك . خاطر بنفسه حتى نلت هذه المنزلة ، فما يستوجب منك اللائمة !

وهذا عباس ، بينما دمعت عينا نصر ، وأما أسامة فقد قام وقبل رأس الوزير وهمس :

— في وسعك أن تريح نفسك يا مولاي .

فتساءل :

— كيف ؟

فهب نصر على قدميه وصرخ :

— أنا أعرف الطريقة يا مولاي ، وما يجب أن تعرفه مما أخفيته عنك هو أن الظافر يحرضني عليك ، وأنا مضطر الى مصانعته لأحفظك منه !

وبين ذهول عباس وحزنه صدق أسامة على رواية ابنه : وراح يحكى ما كان من ذلك . ونستطيع أن نستطلع فيه مذكراته ، فنقف على ما لا تذكره أثبات التاريخ ، مما يلقي في الروع أن المؤلف حاول أن يبريء نفسه من تهمة هو قبل أي انسان آخر يعلم شنعها .

فهو يقول انه كان عند نصر ليلة في دار الشابورة ، وقد جاء مرتفع بن فحل — وهو الذي يتردد بينه وبين الخليفة — فتحدث معه الى ثلث الليل وأنا معتزل عنهما ثم انصرف ، فاستدعاني وقال :

— أين أنت ؟

قلت :

— عند الطاقة أقرأ القرآن ، فاني اليوم ما تفرغت أقرأ .

— فابتدأ يفتحنى بشيء مما كان فيه ليصر ما عندي في ذلك ،
ويريد بي أقوى عزمه على سوء ما قد حمله عليه الظافر ،
فقلت :

— يا مولاي لا يستزلك الشيطان وتنخدع لمن يفرك ، فما قتل
والدك مثل قتل العادل . . فلا تفعل شيئاً تلعن عليه الى
يوم القيامة .

فأطرق ، وقاطعنى الحديث ونمنا . فأطلع والده على الأمر
فلاطفه واستماله ، وقرر معه قتل الظافر .

(٩) عام ١١٥٤ الهيب

لا ينكر أسامة أنه جاء الى مصر وفي جعبته عشرات من المشروعات الحيوية - له ولأقوام المسلمين - وعلى شفتيه عشرات من جمل الملق التي تعبد الطريق أمام الوعود البراقة . وقد نظم حياته أو حاول أن ينظمها على أساس ارضاء جميع الاطراف المتنازعة ، وكانت لديه دائما الحلول لمن تستعصى عليه الحلول . وبدا بوضوح أن في وسعه أن يبتكر لكل أمير - وبخاصة ناصر الدين الذي كثيرا ما نام ورأسه على مخصدته - حيلة طريفة تتفق وظروفه . فالتذلل واجب مقرر اذا ما كان صاحب الأمر يرضى الشهوة في الاثراء ، واذا ما وجه الخليفة أو من يليه في المنصب جل اهتمامه الى العبث فليس بمانع من أن تزين أمامه طرق الشيطان ، واذا كان ثمة حلم بالامجاد السياسية - أو حتى العسكرية - فلا يضر اذا أفسيت بعض الأسرار ، وأما الذين يحبون الشعر ومدارسة العلم فان اقتراح كتاب معين أو القاء قصيدة أو مناقشة قضية لغوية خير ما يزجى ويجدى .

وكان الاعتقاد بالفبيات والتخميس والتسبيح مع القول بالأممة المستورين وعصمتهم شائعا جدا يومذاك ، فلم يجد هو ضررا في أن يفض عنه عينيه ، بل روج له في بعض مجالس الدين التي كان يحضرها في دار العلم التي كانت تسمى أيضا « دار الحكمة » .

على أنه برغم ذلك كله أو مع ذلك كله لم يضع في حسابه أن يدعو الى الاغتيال ، ويوم اقترح على ركن الدين عباس أن يكون صاحب الأمر بقتل الملك العادل ، فانه كان يرجو أن يتم الأمر بكلمة يقولها الظافر . وليس ذلك لأنه يستبشع القتل - فقد قتل غلام أبيه وهو بعد يافع - ولكن لأنه يؤلب عليه الآخرين . ولئن وقع ما خافه فقد تمكن من أن يظل حيث وضعه الحافظ ، بالعكس زادت أملاكه واتسع عيشه وكثر المال بين يديه في الوقت الذي كان يتصور فيه عشرات الآلاف .

واليوم يعود الى أسلوب الاغتيالات ، ومع من ؟ مع الخليفة الذي أعترف - أو تظاهر بالاعتراف بعصمته - فقد انتهى اذن الى أن أصبح سفاحا ، وانهارت آماله في أن يظل النظيف اليدين الذي لا يدعو الا الى جمع الكلمة والجهد لمواجهة الفرنج الصليبيين ، وكان روح الشر قد تقمصته أو كان شيئا غامضا كان يلح عليه في أن استمرار ظروف مصر على ذلك النحو المضطرب لا شك سيلقى عن كتفيه عباءة الشرف والجاه .

واذ يرى أن الحرص ضرورى في هذه المرة ، فقد دبر الأمر بحيث يتم كل شيء - كما رأينا - على يدى ركن الدين وابنه ناصر الدين ، وتلبث حتى نضجت الثمرة وأسرع الى اقطاعه في كوم أشفين . ولم ينس أن ينبه ناصرا بصفة خاصة الى أن تقرب الخليفة منه وتودده وهداياه الثمينة له - فقد بعث اليه على مرات صوانى فضية بها ما مجموعة ثلاثة آلاف ألف دينار عدا البغال والجمال والكسوات - لا يمكن أن تساوى شيئا اذا قيست بحق الأبوة عليه .

وكان من عادة الظافر ونصر - وهما تربيان سنهما واحدة - أن يخرجوا في الليل من القصر فيعيثان فسادا ، فدعاه الى داره التي كانت في سوق السيوفيين بعد أن أعد من أصحابه نفرا

يكننون له في جانب الدار . فلما استقر به المجلس خرجوا عليه فقتلوه هو و غلام له اسمه سعيد الدولة ، ورموا بهما في غيابة جب .

حدث هذا ليلة الخميس سلخ المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وفي صباح الخميس - على ما يذكر أسامة - جلس الوزير في خزانة مجلس الوزراء كالعادة للسلام ، فلما انقضى وقت ظهور الخليفة استدعى زمام القصر وسأله :

- ما لمولانا ما جلس للسلام ؟

فارتج على الزمام ولم يحر جوابا فصاح فيه :

- مالك لا تجاوبني ؟

قال :

- يامولاي مولانا ماندرى أين هو ؟

فقال :

- مثل مولانا يضيع ؟ ارجع فاكشف الحال ..

فمضى ورجع قائلا :

- ما وجدنا مولانا ..

فقال الوزير :

- ما يبقى الناس بلا خليفة .. ادخل الى الموالى اخوته

يخرج منهم واحد نبايعه ..

فمضى وعاد ، وقال :

- الموالى يقولون لك « نحن مالنا في الأمر شيء ، والده عزله

عنا ، وجعله في الظافر والأمر لولده من بعده » .

قال :

— أخرجوه حتى نبايه .

كان الوزير قد عقد عزمه على القاء تهمة اختفاء الخليفة على أخويه ابني الحافظ وهما : أبو الأمانة جبريل ، والأمير يوسف ابن الحافظ ، وعلى ابن أخيهما الأمير أبي البقاء . فدخل عليهم حاملا الفائز بن الظافر — وكان طفلا في الرابعة — فبكى كل من كان في القاعة .

وفي القصر أكثر من ألف مصري ، فما راعنا إلا فوج قد خرج من المجلس الى القاعة وصوت السيوف على انسان ، فقلت لفلام لى أرمنى :

— أبصر من هذا المقتول ..

فمضى ثم عاد وقال :

— هذا مولاي أبو الأمانة قد قتلوه وواحد قد شق بطنه ويجذب مصاريه ..

ثم ظهر عباس وقد أخذ رأس الأمير يوسف تحت أبطه وقد ضربه بسيف والدم يفور منه ، وأبو البقى ابن أخيه مع نصر بن عباس . فأدخلوهما في خزانة في القصر وقتلوهما ، وفي القصر ألف سيف مجردة (١) .

وهكذا انتهى كل شيء بالنسبة لخليفة مضي وخليفة جاء ، ولكن الجنود ثاروا واختلفوا بينهم — كما قدر أسامة — شيعة وأحزابا وتبعهم الناس وقد اشتموا رائحة الغدر فاضمروا للوزير العداوة والبغضاء . وهاجموه ، فاضطر الى أن يقاومهم ، ويقود أسامة مع ابنه نصر المارك في الشوارع والأسواق . وفي

(١) يحسن أن يقابل هذا بما رواه ابن تفردي بردي في النجوم

الوقت نفسه استصرخ أخوات الظاسف أبا الفارات طلائع
ابن رزيك ، فترك منية بنى خصيب وزحف الى القاهرة ، وتمكن
برغم المقاومة الشديدة التي أبدتها الوزراء - ولا ندرى هل
ظل أسامة من بينهم على طول الخط - استولى ابن رزيك على
دار الوزارة .

وفي الوقت الذي كان عباس فيه يعمل على اللجوء الى دمشق
- وقد ملكها نور الدين محمود - هو وعشيرته وعشيرة أسامة ،
كان هذا على اتصال بابن رزيك . وتم الاتفاق بينهما على أن
يبقى ليكون عوناً وساعده في عهد مصر الجديد « عباس ما يقدر
على المقام بمصر بل هو يخرج منها الى الشام وأنا أملك البلاد .
وأنت تعرف ما بيني وبينك ، فلا تخرج معه . فهو بحاجة اليك
في الشام يرغبك ويخرجك معه ، فالله الله لا تصحبه ، فانت
شريكي في كل خير أنا له » .

ومن ناحية أخرى بدا عباس كأن الشياطين وسوست له بذلك
فقال بعد أن استحلفه أن يكون معه وأحضر أهله في ركابه « أنا
أحمل كلفتهم عنك في الطريق ، وأحملهم مع والدة ناصر الدين » .

وكان من قبل قد استدعى جماعة من مقدمي العرب - من
درماء وزريق وجذام وسنبس وطلحة وجعفر ولوانه - واستحلفهم
أيضاً بالمصحف والطلاق على مثل ذلك . فما راعهم في صباح
الجمعة إلا والناس قد ادرعوا ، وزحفوا اليهم بالسلاح يقودهم
الأمراء الذين استحلفهم عباس . وهنا طلب عباس من أسامة أن
يخرج في ثمانمائة فارس للمقاومة ، إلا أن الزريكيين ظهروا عليهم ،
أقتفروا .

فلما خرجنا من باب النصر - هاربين بمن معنا من الأتراك -
وصلوا الى الأبواب . أغلقوها وعادوا الى دورنا نهبوا ، فأخذوا
من قاعة دارى أربعين غرارة جمالية مخاطة فيها من الفضة

والذهب والكسوات شيء كثير .. وأخذوا من اصطبلي ستة وثلاثين حصانا وبقلة سروجية ، بسروجها وعدتها كاملة ، وخمسة وعشرين جملا ، وأخذوا من اقطاعي من كوم أشفين مائتي رأس بقرة وألف شية وأهراء غلة .

ولما سرنا عن باب النصر تجمعت قبائل العرب الذين استحلهم عباس وقتلونا من يوم الجمعة ضحى نهار الى يوم الخميس العشرين من ربيع الاول ، فكانوا يقاتلوننا النهار كله ، فاذا جن الليل ونزلنا اغفلونا الى أن ننام ، ثم يركبون في مائة فارس ويدفعون خيلهم في بعض جوانبنا ويرفعون أصواتهم بالصياح ، فما نفر من خيلنا وخرج اليهم أخذوه .

وانقطعت يوما عن أصحابي وتحتى حصان أبيض هو أردا خيلي ، شده الركابي ولا يدري ما يجري ، وما معى من السلاح غير سيفي . فحمل على العرب فلم أجد ما أَدفعهم به ، ولا ينجيني منهم حصاني وقد وصلتني رماحهم . قلت أئب عن الحصان وأجذب سيفي أَدفعهم ، فجمعت نفسي لأئب فتتعتع الحصان ، فوقعت على حجارة وأرض خشنة ، فانقطعت قطعة من جلدة رأسي ودخت حتى ما بقيت أدري بما أنا فيه . فوقف على منهم قوم - وأنا جالس مكشوف الرأس غائب الدهن وسيفي مرمى بجهازه - فضربني واحد منهم ضربتين بالسيف وقال :

— هات الوزن !

وأنا لا أدري ما يقول ، ثم أخذوا حصاني وسيفي . ورآني الأتراك فعادوا الى ، ونفذ لي ناصر الدين بن عباس حصانا وسيفا ، وسرت وأنا لا أقدر على عصاة أشد بها جراحى . وعجزت عن حمل أهلى ، فرددتهم من بلبيس الى الملك الصالح أبى الفارات طلائع بن رزيك .

وأما عباس وهو وأخوه نجم الدين أبو عبد الله محمد وناصر الدين نصر وابنه الثاني حسام الملك فقد اتخذوا طريقهم إلى الشام ، واضطروا إلى أن يعبروا بلادا يملكها الفرنج . وفي يوم الأحد الثالث والعشرين من ربيع الأول - ٥ من يونيو سنة ١١٥٤ - دهمهم الفرنج ، وقتلوا عباسا وحسام الدين وأسروا ناصر الدين ابنه ووضعوا أيديهم على خزانته وحرمه وقتلوا من ظفروا به من الموالى (١) . وأما أسامة فقد أفلت تاركا أخاه في يد الفرنج ، ولجأ بمن معه من الرجال إلى الجبال حتى إذا رجعوا عنه عبر وادى موسى بغير زاد للرجال ولا علف للخيول وكان كثيرا ما يفقد بعض مواليه في هجمات غادرة يشنها عليه شياطين النهاية.

وتلك الناحية - جبال بنى فهد - لا تخلو من بعض بنى ربيعة الأمراء الطائيين ، فسألت :

- من هاهنا من أمراء بنى ربيعة ؟

قالوا :

- منصور بن غدفل .

وهو صديقى ، فدفعت لواحد دينارين وقلت :

- امض إلى منصور قل له « صديقك ابن منقذ يسلم عليك ويقول لك صل إليه بكرة » .

وبتنا في بيت سوء من خوفهم ، فلما أضاء الصبح أخذوا عدتهم ووقفوا على عين ماء نشرب منها ، وقالوا :

(١) في الروايات التاريخية أن اخت الظافر هي التي وشت بهم إلى ملك أورشليم ، ونحن لا نستبعد ذلك ، فقد كان الفرنج إذ ذاك يخططون للاستيلاء على مصر. وفي دعوة الاخت مبرر للتدخل - راجع مصر في المصور الوسطى للدكتور على إبراهيم حسن ٣٣٢ ط . النهضة المصرية سنة ١٩٥٤ .

— ما ندعكم تشربون ماءنا ونهلك نحن بالعطش .

وتلك العين تكفى ربيعة ومضر وكم فى أرضهم مثلها ، وإنما قصدهم أن ينشئوا الشر بيننا وبينهم ويأخذونا . فنحن فيما نحن فيه اذا منصور بن غدفل يصل ، فصاح عليهم وسبهم فتفرقوا ، وقال :

— اركب !

فنزلنا سالمين وما كدنا نسلم ، فجمعت للأمير منصور ألف دينار مصرية ودفعتها اليه ، وعاد . وسرنا حتى وصلنا بلد دمشق بمن سلم من الافرنج وبنى فهد يوم الجمعة خامس ربيع الآخر من السنة ، وكانت السلامة من تلك الطريق من دلائل قدرة الله عز وجل وحسن دفاعه .

(١٠) أيام نور الدين

عندما دخل أسامة على الملك العادل نور الدين محمود أدى له فروض الطاعة ومراسم الخضوع ، فتشاغل عنه لحظة ، ثم رفع إليه رأسه فإذا عيناه تومضان ببريق غريب ، وابتسامة صغيرة تداعبه بها شفتاه الرقيقتان . انه صورة من أبيه الذى طالما حذر منه الناس ، ولم يكن قد لحظ ذلك فى المرة التى التقاه فى بصرى ، الجبهة العريضة نفسها والنظرات النفاذة المتبعثة من عيني زرقاوين ، وقال له :

— الآن استرحت يا أبا المظفر ؟

قال :

— بفضلك بعد فضل الله يا مولاي .

قال الملك العادل :

— وحرملك ؟

فأجاب :

— بعث الى الملك الصالح أبو الغارات يطلب منى الرجوع اليهم

ويعرض على ولاية أسوان (١) .

(١) فى مذكرات أسامة ما يدل على أن أسوان كانت تغرا من نفور

المسلمين ، وقد حرص ابن رزيك على أن ينبه أسامة الى ضرورة وجوده

فى ذلك الثغر لمهاجمة الأحباش .

فتساءل :

— وقبليت ؟

قال :

— الأمر لك بعد الله يا مولاي ..

فاستضحك الملك العادل وقال :

— من يسمع إليك يا أبا المظفر وأنت تخاطبني على ذلك النحو
يظن أنك في نهايتك مع أني أراك في الفتاء كمثل الشاب الفحل
المكتمل .

فهز أسامة رأسه ببطء وقال :

— وهل شاب مكتمل من في الستين يا مولاي ؟ لقد أبيض
فوداوى وأصبفهما بالحناء وفقدت ضرسا من أضراسي .
قال :

— والله ما تزال كما كنت وأخبرني من لا أشك في روايته
أنك كنت كذلك أبدا منذ عشرين عاما .
فقال أسامة وهو يقبل ظاهريده :

— الحمد لله ...

قال :

— فماذا عن طلب أبي الغارات ؟

فلما لم يجب ، قال :

— ما أرى الا أن بريق الحكم يأسرك !
فقال :

— مصر جميلة والله يا مولاي ...

قال :

— أتريد أن أصدقك الامر يا أبا المظفر ؟ أبو الفارات يقدرك حقيقة ولكنه يخافك وأنت معى ، وهو لذلك يريد أن يدنيك منه .

فقال أسامة :

— يريد ابعادى عنك ؟

قال ضاحكا :

— حتى لا تؤلبنى عليه وتصف لى عورات البلد فأهجم عليه ، ليطمئن بالا .. فشغلى اليوم فرنج الشمال ، وأما مصر فأين أنا منها وبينى وبينها بيت المقدس ؟

قال أسامة :

— فما يطلب مولاي ؟

فأجاب :

— أنفذ اليه يبعث بأهلك فوالله لن تضيق بكم دمشق وأنا حى أرزق .

ولما هم أسامة بتقبيل الأرض بين يديه ، بوغت به يقول :
— على أن تدع السياسة لى ، فما أحب السياسة تقلب ضيوفى فأفقدهم .

وقبل أسامة التحذير عن طيب خاطر ، فتهيأت له بذلك فرص العيش والرغد ، بخاصة بعد أن رد له طلائع بن رزيك أهله ومماليكه . وكانوا قد تعرضوا لمضايقات الفرنج بعد أن تحطمت السفينة التى كانت تقلهم ، وفقدوا كل ما حملوه معهم من مصر بما فى ذلك كتبه التى بلغت أربعة آلاف مجلد ، فكانت النكبة الثالثة فى حياته .

وهياً وجوده في دمشق فرصة زيارة شيزر ، غير أنه لم يكد يصل إليها حتى توفي الله عمه أبا العساكر ، وشهد تنصيب ابنه تاج الدولة ناصر الدين محمد أميرا في أخريات عام ١١٥٤ فهناه ودعا له بطول البقاء ، وحرص على أن يظهر الجو مما علق به من سعايات ووشايات وذلك في قصيدته :

أطاع ما قاله الواشي وما هرفا

فعاد ينكر منا كل ما عرفا

كذلك أشار عليه بما يضمن حدوده ضد غارات الفرنج ، وان لاحظ أن اهتمام الفرنج بالحرب النورماندية (١) كان يصرفهم عن الامارات الاسلامية بوجه عام . ويبدو أن أمير أنطاكية الذي خلف ريمون دي بواتيه سنة ١١٤٩ - وهو رينو دي شاتيون - أثر أن يشغل نفسه بحرب أخرى في طوروس مساندا عمانوئيل ، أو كأنه خاف بأس نور الدين محمود فسكت عن أقاليم سوريا الشمالية .

المهم أن أسامة رجع الى دمشق ليشغل نفسه بشيئين : القنص ، ومتابعة جهود نور الدين . وأعجبه منه أنه كان يتصرف بحكمة ، فاستغل ما بين دمشق والقدس من تحالف قديم وتوجه للاسماعيلية - أعداء شيزر الأزليين - في صرخد وبصرى وبانياس ،

(١) في صيف عام ١١٤٧ ابتلى عمانوئيل البيزنطي بمشكلات الحرب الصليبية الثانية فانتهر روجر الثاني - خليفة روبرت جسكارد في صقلية وجنوب إيطاليا - الفرصة واحتل كورفو ثم كورنثوس بالورة ، ولما كانت هناك علاقات بين البنادقة وعمانوئيل فقد عقدوا تحالفا معه بصد روجر أسفر عن استرداد كورفو وهزيمة النورمانديين عند رأس « مالى » واحتلال « أنكونة » سنة ١١٥١ ، وهكذا ازدادت مطامع عمانوئيل في إيطاليا حتى ترمى لبعض رجال السياسة أن الحرب الرومية النورماندية ستصبح حربا أوروبية شاملة ، ولكن بابا روما تدخل لعقد معاهدة سلام لمدة ثلاثين سنة.

ولم يعبأ بتحالفهم مع الفرنج .. كذلك شدد النكير على من يجده في بوادي الشام من جنود الأرمن المسلمين وفرسان الأتراك ونبالة الموارنة ، على الرغم من أنهم كانوا جزءا من محاربة اورشليم (١) .

وفي رجب من عام ١١٥٧/٥٥٢ وقع الزلزال العظيم الذي روع سوريا ودمر حصونها وقلع منشئاتها ، وفي زحام الناس الذين قتل منهم نحو عشرة آلاف ، راح أسامة يتربص أبناء شيزر وقد اتخذ - الى حين - كوخ خشب لماواه هو وحرمة . ولم يمض الا قليل حتى نعى اليه ان بلده بجميع أمرائها المنقذين قد أضحت خرابا هي وحماة وكفر طاب والمعرة وأقامية . ومن مهازل الأيام أن بنى منقذ يومذاك كانوا يحتفلون بختان ولد تاج الدولة ، فاذا القلعة المنيعة تخر أركانها ويقصف بعضها بعضا ، وتتكوم أخلاطا من الحجارة والفبار . ولم ينج سوى أم الطفل الذي أولم بختانه ، وهي الخاتون شقيقة شمس الملوك بوري بن طفتكين الذي كان في ذات يوم صاحب دمشق .

وما كان أسامة يستطيع شيئا ازاء الكارثة المروعة ، حتى عندما سلمت شيزر لنور الدين محمود ، وساق الخاتون في قيد ذل الى قصره أسيرة . اذ ذاك لم يجد سوى الدموع - وهو الجسور الذي لا تصرعه النوائب - وأفصح في شعره عن شكواه والله ، وكان مما قاله :

ما استدرج الموت قومي في هلاكهم
ولا تخرمهم مثنى ووحدا

فكنت أصبر عنهم صبر محتسب
وأحمد الخطب فيهم عز أو هانا

(١) قابل هذا بما يرويه عماد الدين الأصفهاني في كتابه الفتح القسي في الفتح القدسي ٧٤٢٥ . ليدن سنة ١٨٨٢ .

وأقتدى بالورى قبلى فكم فقدوا
أخا وكم فارقوا أهلا وجيرانا

لكن سقيت المنايا وسط جمعهم
رغما فخرُوا على الأذقان اذعانا
وفاجأتهم من الأيام قارعة
سقتهم بكثوس الموت ذيفانا

ماتوا جميعا كرجع الطرف وانقرضوا
هل ما ترى تارك للحين انسانا

لم يترك الموت منهم من يخبرنى
عنهم فيوضح ما قالوه تبياناً

هذى قصورهم أمست قبورهم
كذلك كانوا بها من قبل سكانا
ويح الزلازل أفنت معشرى فاذا
ذكرتهم خلتنى فى القوم سكرانا

لم يحمم حصنهم منها ولا رهبت
بأسا تبادره الاقران أزمانا

ان أقفرت شيزر منهم فهم جعلوا
منيع أسوارها بيضا وخرسانا

بنو أبى وبنو عمى دمي دمهم
وان أرونى مناواة وشنانا

يطيب النفس عنهم أنهم رحلوا
وخلفونى على الآثار عجلانا

والعجيب أن الملك الصالح بن رزيك انتهز هذه الفرصة فكرر
دعوته اليه ، كانه ظن أن هذا الفارس لن يستطيع البقاء قريبا من

موضع الكارثة ، فضلا عن رغبته الصادقة في أن يقف بجانبه بعد أن شرع الفرنج يتجهون بمطامعهم الى مصر . وكانت مكاتباته له وأشعاره تكشف عن ود صادق ، ومما قال له يعزيه في مصابه :

فاحتسب ما أصاب قومك مجد الد
ين واصبر فالحادثات ضروب
فكذلك القنـاة يكسر يوم الر
وع منها صدر وتبقى الكعوب

(١١) فى مفترق الطرق

كلا لم تمت فيه سورة المحارب ولم تضعف ، بل لا مندوحة
عن الاعتراف بأنه ظل حتى هذه المرحلة من حياته الفارس الصياد
الذى يستطيع أن يركض طول نهاره على جواده فلا يكل ولا يمل ،
وكان - مثل أبيه - يصرع بالجملة ما يريد أن يتصيد ويتكلف فى
أثارة مرافقيه ما يملأ صدورهم بالوجل والعجب .

واننا لنخطئ تماماً اذا نحن حاولنا أن نتخيل أبا المظفر على
غرار ذلك الطراز الواهن من الشيوخ ، فهذا الذى يجرى على أن
يصبغ شعره وفى الوقت نفسه يتكلم عن الشيب لا يشبه فى شئ نمط
متقدمى السن ذوى الرخاوة والوداعة ومن اذا قاموا هدهم الهرم
وأعوزهم الى العصى . وكانت قدرته على المقاومة الجسدية فائقة ،
فقد أصيب بجروح القنطاريات والجروح (١) أربع عشرة مرة ،
وفى مصر طعن وهو أعزل بالسيف طعنتين ، وفى وادى موسى رشق
فيه نشاب ، ولما أثقل المرض نور الدين عام ١١٥٩ - حتى أنه عين أخاه
قطب الدين مودوداً صاحب الموصل خلفاً له - صم هو حتى ذكر
الموت لكنه شفى وسيده .

(١) الجروح : من أدوات الحروب أشبه بالمجانق - الى حد ما -
وترمى النشاب والحجارة ، وينسب اليها الجرحية الذين حدثنا عنهم أسامة
فى حصار حصن الصور بديار بكر مع « ملك الأمراء أتابك زنكى » يقصد
عماد الدين وذلك سنة ١١٣٤/٥٢٨ .

فأينما يكن ، وعلى أى نحو يتصرف ، وفى كل الظروف ، يبدو أبو المظفر أسامة بن منقذ صحيحا مكتمل العافية بادي الفحولة مشدود الجلد . وقد ظل أكثر من نصف قرن كأبطال الأساطير ، وأكثر من ستين عاما واحدا من المرموقين ، وحتى الحلقة السابعة من عمره - وقد استهلها بتأديته فريضة الحج - لم يعرف الا فى أصحابه ذلك النوع من الاخفاق الذى يؤذن بالموت والمرء حى يرزق .

والى جانب ذلك ظل متوقد الذهن حاضر البديهة ، ماضى العزم ، حسن الرأى استشاره نور سنة ١١٥٩ - قبل مرضه - فيما ينبغى أن يصنع ازاء توسعات عمانوئيل البيزنطى فى شمالى سوريا بعد أن أعلن صاحبا أنطاكية وأورشليم ولاءهما له ، فأشار عليه بأن يتفق معه اتفاق سلام ويطلق بمقتضاه ستة آلاف أسير من الفرنج فى حلب ويتعهد له بأن يؤمن سير الحجاج النصارى فى أرضه (١) ولما أبدى نور الدين استيائه ذكره بصلح الحديبية وما نجم عنه ، وإن بدا فى نظر الكثيرين من أصحاب الرسول تسليما للأعداء .

ولما مات بلدوين الثالث وتسلم عرش أورشليم أخوه أمورى ، أشار أسامة على نورالدين بالآ يشغل نفسه بمناطقه قليج أرسلان الثانى سلطان قونية - وقد أوقعه فيه عمانوئيل - وسرعان ما أكدت الايام خطورة أمورى وقوة شكيمة .

وحقا لم يحك لنا فى مذكراته أنه حارب ، وكذلك لم تذكر المصادر التاريخية أبناء معارك خاضها . الا أن أبا شامة المقدس يؤكد فى كتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين » أنه اشترك فى حصار حارم سنة ٥٥٩ / ١١٦٤ وأبدى فنونا من الشجاعة التى

(١) قابل ذلك بما سجله ستيفنسون عن انتصارات عمانوئيل وخضوع انطاكية والقدس لنفوذه الكبير . Stevenson: Crusaders, P. 325.

لا مزيد عليها (١) . وقد اشترك في هذه المعركة - التي انتهت بسقوط حارم وأسر بوهيموند الثالث صاحب طرابلس وجوسلان الثاني صاحب الرها - فخرالدين قرا أرسلان صاحب كيفا دار السلطنة في ديار بكر ، وأعجب هذا الأمير به وحثه على الالتحاق ببلاطه .

واذ تنحصر فلسفته في أن لذيد العيش في النقل ، رحب بدعوة فخر الدين ، غير أنه لم يذهب إلا بعد أن استأذن نورالدين ، فكان من أكثر الناس ترجيحاً بذهابه . وإذا بدا ذلك غريباً في أول الأمر فأننا يجب أن نقرر أن أسامة بدأ يراجع نورالدين في بعض تصرفاته - وكان هذا يسخطه - ومن ناحية أخرى لم يعد يخشى من أن يكون يداً عليه عند أحد ، بعد أن ضعف تماماً أبو الغارات طلائع بن رزيق أقوى منافسيه .

ومن الطريف أن أسامة نفسه الذي عوض بالكثير بعد أن ذهب بيته في زلزال سوريا الذي دمر مسقط رأسه ، ومنح اقطاعاً ضخماً راح يندد بسوء ما يلقي في كنف نورالدين ، وكان مما قاله (٢) :

(١) عندما كتب طاهر النعساني عن وقائع أسامة الكبار سجل له تلك الواقعة وكان كما يقول شجاعاً للغاية ، ولما عاد إلى حلب دخل مسجدها - وكان قد دخله في العام الماضي سائراً للحج - وكتب على حائطه :

لك الحمد يا مولاي كم لك منة	على وفضل لا يحيط به شكرى
نزلت بهذا المسجد العام قافلاً	من الغزو موفور النصيب من الأجر
ومنه رحلت العيس في عامى الذى	مضى نحو ركب الله والركن والحجر
فاديت مفروضى وأسقطت ثقل ما	تحملت من وزر الشبيه عن ظهري

راجع أسامة بن منقذ ٢٣ .

(٢) رواية عمادالدين الأصفهاني على ما سجل ياقوت ، وذكر أن الشاعر كان في غرض له عند نورالدين محمود رحمه الله - راجع معجم الأدباء ٥ : ٢٠٤ ط . دار المأمون بإشراف رفاعى .

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا
له فكل على الخيرات منكمش
أيامه مثل شهر الصوم طاهرة

من المعاصي وفيها الجوع والعطش
اننا حريون بأن نحس التناقض وقد ظهر هذا الرجل قانعا
غير قانع وراضيا غير راض - ولكننا اذا حاولنا أن نجاوز
ظواهر الأحوال ونوجه أفكارنا صوب المستقبل وأهدافه التي تعود
ألا يشير إليها جردنا تلك المرحلة من جانب كبير من أعراضها ،
وانتهينا الى أنه عرف « طاقة » نورالدين الحقيقية .

وفي أكثر من مرة عرض مع أحد شبان البلاط المرموقين - وهو
صلاح الدين يوسف بن أيوب - لما أداه نورالدين في مواجهة
الصليبيين وما يمكن أن يؤديه ، وانتهيا الى أنه طالما صرف النظر
عن عمل حاسم في « جمع » كلمة المسلمين والعرب فلا غناء في
صراعه مع هذا الافرنجى أو ذاك . وليس هذا بطبيعة الحال
مما يغمط حقه من الاشادة والتقدير ، فان الشيء الذى لا شك
فيه أنه دوح أمراء الافرنج وملوكهم .

اجل ، وهذه الحقيقة - حقيقة نورالدين - لم يكن ينقصها
من وجهة نظر أسامة أن يقرر أنه طالما افتقد الجراءة ، برغم أنه في
الحاين يبدو متهورا أو في تهور المقدامين . فهو يقاتل الافرنج في
بلاد الأرمن بناء على طلب عمانوئيل ، ويرفض مقاتلتهم في مصر
لأنه كان يخشى طلائع بن رزيك ، على الرغم من أن هذا الوزير
المصرى كتب الى أسامة أكثر من مرة يسأله أن يحرض نورالدين
على فرجة القدس :

قل له كم تماطل الدين في الك	فار فاحذر أن يفضب المطول
سر الى القدس واحتسب ذلك في	الله فبالسير منك يشفى الغليل
واذا ما أبطا مسيرك فالأ	ه اذن حسبنا ونعم الوكيل

وقد اضطر أسامة بعد أن يؤس من نور الدين - وكأنه شعر بأنه لا طاقة له على قتال ملك أورشليم - الى أن يكتب له :

يا أمير الجيوش يا أعدل الحد	كام في فعله وفيما يقول
أنت حليت بالمكارم أهل ال	عصر حتى تعرف المجهول
وقسمت الفرنج بالغزو شطري	ن فهذا عان وهذا قتل
بالغ العبد في النسيابة والتحد	ريض وهو المفوه المقبول
فراى من عزيمة الغزو مكا	دت له الأرض والجبال تميل
واذا عاقت المقادير فالل	ه اذن حسبنا ونعم الوكيل

ان الأشهر الأخيرة من السنوات العشر قضاها في صحة نورالدين محمود (٥٤٩ - ١١٥٤/٥٥٩ - ١١٦٤) كانت بالنسبة له بمثابة الزوال ، أو كانت تضع له النتيجة التي طالما تردد في الاعتراف بها . وهى لن يتم طرد الفرنج من الأرض العربية التى توارثها الأمراء المسلمون على يديه !

واذن فقيم بقاؤه ؟

ولماذا لا ينتجع غيره ؟ واذن فلتكن رحلته الى ديار بكر التماسا لشيء جديد ، وحتى اذا بدا غير حكيم فى اختياره الجانب الأضعف - والمعروف أن قرا أرسلان أدنى من نور الدين بلا مشاحة - فانه ينبغى ألا يفرض نفسه على من لا ينتفع به ، وقد استبان تماما أن نور الدين أستغنى عنه الى الأبد .

(١٢) السجين

في الفترة التي كان أسامة فيها يعد عدته للرحيل ، توترت الأحداث في مصر بخلع شاور - أحد أمراء الصعيد - لأبي شجاع العادل بن طلائع من وزارة الخليفة العاضد . ولما هبط هو كيفا هبطا ذلك الوزير دمشق هاربا من ضرغام الذي كان أميرا للبرقية - وهم فرقة من جند برقة - وطمع في الوزارة ، لكنه عندما علم باستنجد خصمه بنور الدين اتجه الى أموري طالبا عونه .

وهكذا شهدت أيام أسامة الأولى في كيفا بديار بكر ما كان يجب أن يشهده وهو في بلاط نور الدين محمود . الا أن الزمن تأخر قليلا ، فكان عليه وهو مشغول بصيد الحجل والزرخ والأراوى ومعزى الجبل مع الأمير فخرالدين قرا أرسلان أن يتابع الأحداث من بعيد ، فيستثار عندما يعلم أن صديقه صلاح الدين الأيوبي يصحب عمه أسد الدين شيركوه الذي كان يقود جند نورالدين الذاهبين الى نجدة شاور (١) . وسرعان ما تدفعه طبيعة المحارب الى الدخول في مغامرة محلية وبكل ما اكتسبه من قدرة

(١) الطريف أن صلاح الدين كان حتى هذا الزمن - عام ١١٦٤ - أكثر ميلا الى العلوم الدينية منه الى العمليات العسكرية ، ولذلك قبل ضجة عمه بعد تردد - راجع تاريخ أبي الفداء ٣ : ٤٧ والروضتين ١ : ١٥٥ وكامل ابن الأثير ١ : ٦٦ .

على التدبير والكيد يفري قرا أرسلان بغزو آمد التي كان يعلم انها محط نظره ومناط أمله .

وكان أبو المغيث بن منقذ اخو أسامة موجودا اذ ذاك في آمد ، فأطلعه على تحصيناتها من أبراج وأبواب وآلات دفاع . كما وقفه على طبيعة الحياة فيها والأسلوب الذي كان يحكمها به الأمير كمال الدين على بن بيسان ، ونقل هذا كله أسامة الى سيده الجديد . ولكن كم كان فرعه حينما أعفاه من خوض المعركة ووكلها الى غلامه ياروق الافرنجى برغم غضب الجند عليه لسوء خلقه .

ويحدثنا أسامة عن الاخفاق الذي منيت به الحملة بقوله ان الأمير قرا أرسلان اعتاد أن يقوم بعمليات عسكرية في آمد ولا يبلغ منها مقصوده ، وكان آخر عمل عليها أن أميراً من الأكراد كان مديونا بآمد راسله ومعه جماعة من أصحابه ، وقرر الأمير أن يصله العساكر في ليلة تواعدوا اليها ويطلعهم بالجمال ويملك آمد. فعول فخر الدين في ذلك المهم على خادم له أفرنجى يقال له ياروق ، والعسكر كله يملكه ويكرهه لسوء أخلاقه . فركب في بعض العسكر وتقدم ، وركب باقى الأمراء فتبعوه . وتوانى هو في السير ، فسبقه الأمراء الى آمد . فأشرف عليهم ذلك الأمير الكردي وأصحابه من برج ، ودلوا اليهم الجبال وقالوا « اطلعوا » ما طلع منهم أحد ، فنزلوا . كسروا أقفال باب المدينة وقالوا « ادخلوا » ما دخلوا ، كل ذلك لاعتماد فخر الدين على صبي جاهل في هذا المهم العظيم دون الأمراء الكبار .

انه كعادته يبعد نفسه عما يثير الشك فيه ويورطه في الظنة ، ولا بد انه راح يتجرع كأس المرارة حتى الثمالة . وضاعف من أحزانه غياب أميره فخرالدين ، فقد قضى نحبه سنة ١١٦٦/٥٦٢ . والعجيب أن مصر كانت في ذلك الحين تتعرض لحملة نور الدين الثانية بقيادة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ووافق

وصولها وصول الافرنج . وبينما عسكر هؤلاء قرب الفسطاط نزل شيركوه في الجيزة ، لكن رعى الحرب لم تدر الا قرب المنيا في البابين . واضطر شيركوه الى أن يزحف خلال الصحراء الى الاسكندرية ويستولى عليها ، ثم يعين عليها صلاح الدين واليا فيحاصره الافرنج ، وينتهى الأمر برحيل جيشى نورالدين وأمورى .

ولا ندرى ماذا كان وقع الأنباء على أسامة وهو في تلك الارض البعيدة عن ساحة الصراع . لكن ظروفه تؤكد أنه كان في تلك الآونة فاطر الهمة نحو أى شىء سوى شئونه الشخصية ، ذلك أن نورالدين محمد بن قرا أرسلان - أمير ديار بكر الجديد - كان لا يظهر له الاحترام ولا يوليه التقدير اللذين يستحقهما ، وأى صفة مشتركة عساها توجد بينهما واحدهما شيخ ليس وراءه الا المتاعب والآخر حدث يرى من الأفضل مصاحبة الأحداث ؟

ولما عاد أمورى فبعث بقواته الى مصر للاستيلاء عليها في غفلة من نورالدين محمود حتى اضطر شارو الى اضرام النار في الفسطاط وبعث العاضد يستنجد بصاحب الشام ، كان أسامة ينعى أيامه الخوالى ويتسخط على الحظ العائر الذى أقعده عن العمل الحاسم في هذه المرحلة من تاريخ المسلمين .

واذ يكون عليه أن يختار أحد طريقين لا ثالث لهما : اما القعود في كيفا على الضيم برغم مخالطته للأدباء والنساک والفقهاء من أمثال الخطيب مجدالدين موسى بن الخطيب قدوة الشريعة يحيى الحصكفى ، واما الرجوع الى دمشق ، يبلغه نبأ استيلاء شيركوه على مصر سنة ١١٦٨/٥٦٤ وتعيينه وزيرا للعاضد بعد قتل شاور ، وعقب هذا بشهرين أو في رمضان من العام نفسه يموت شيركوه فيعين العاضد ابن أخيه صلاح الدين خلفا له في الوزارة .

وهكذا تدور الأيام ويصبح الشاب الذي يبلغ الثلاثين والذي طالما جلس الى أسامة في دمشق وبعلبك سائلا ومتعلما وسامعا الى شعره وأخبار بطولاته - يصبح هذا الشاب من دون الناس جميعا في المركز الذي لا ينكر أنه فكر فيه أحيانا ، مركز الوزير في دولة كبيرة كمصر .

واها لتلك الأيام الماضية التي كان في وسعه أن يفعل شيئا ! وأما اليوم فهو سجين في كيفا دائما ، وان أبعد زار ميافارقين ، فاذا أراد أن يفرق نفسه في القراءة نزل آمد وتقلب مع ألف ألف وأربعين ألف مؤلف في مكتبتها الضخمة ، والأمر على أى حال لم يكن في غاية السوء ، بل ربما كان على العكس من ذلك تماما ، والا فكم كسب من مغامراته ورحلات قنصه اذا قيس بما كان يضع في تلك الفترة من كتب عرف بها فيما بعد ؟

انه هو نفسه لم يكن راضيا ، ولكن الذين كتبوا عنه يجمعون على أن أيام ديار بكر العصبية هي التي خلدته في التاريخ ، ففيها وضع أشهر أربعة كتب له قبل أن يتصل بالقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الكاتب المعروف ويهديه « كتاب العصا » . وهذه الكتب هي « لباب الألباب » أو معظم فصوله و « تاريخ القلاع والحصون » ويتضمن الحوادث الى سنة ٥٦٦ هـ و « التاريخ البدرى » جمع فيه أسماء الأبطال الذين شهدوا بدرا ورصد أخبارهم و « البديع » الذي دأب على التفكير فيه منذ أيام شيزر حتى أتمه في ديار بكر (١) .

(١) ليست هناك تواريخ قاطعة تبين السنة التي كان يفرغ فيها أسامة من أى كتاب ، ومن ناحية أخرى كان من عادته أن يعود الى مؤلفاته بالزيادة والتنقيح . فبينما نقرأ على « لباب الألباب » أن الفراغ منه كان في صفر من سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، نقرأ أيضا بخط ابنه مرهف ما يلي :

كتاب لباب الألباب

تأليف أسامة بن مرشد بن مقلد بن نصر بن مقلد

حقا وضع عدة كتب قبل ذلك ومن بينها « التجائر المربحة
والمساعي المنجحة » و « أخبار النساء » و « النوم والاحلام »
الا أن هذه - وثمة غيرها - لا تبلغ ما بلغت الكتب الأربعة الأولى.

= الكنعاني ، غفر الله له ولوالديه ولجميع
المسلمين حبياني مولاي والذي مجسد الدين
مؤيد الله وفقه الله بهذا الكتاب الذي هو من
تأليفه بدمشق المحروسة في شهر سنة اثنتين
وثمانين وخمسمائة - وكتبه ولده مرهف بن أسامة
حامدا ومصليا .

وقد حرص أحمد محمد شاكر محقق الكتاب الذي نشره سنة
١٩٣٥/١٣٥٤ على أن يشير الى اضافاته وتفتحاته مقرا بأن أسامة انتهى
من الكتاب قبل وفاته بنحو خمس سنوات .

وفيما مضى من سيرته نحس أنه كان مشغولا بالبديع فلما فرغ منه .
وسماه « البديع في نقد الشعر » مقسما اياه الى خمسة وتسعين بابا
لم يحدد تاريخا ما ولم يعن ناسخه الا أن يحرر تاريخ الانتهاء من نسخته
فقط وهو سنة إحدى عشرة وسبعمائة ، وعجز محققا الكتاب الدكتوران
أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد عن الادلاء بأي رأى في هذا الموضوع ،
وبالمثل « كتاب العصا » الذي نشره عبد السلام هارون في سلسلة « نوادر
المخطوطات » سنة ١٩٥١/١٣٧١ فاننا لا نجد فيه أي تاريخ وان كنا نعلم
أنه جرت بينه والقاضي الفاضل كتابات عنه وذكر فيه حوادث وقعت بعد
سنة ١١٧١ منها طلبه عصا آبنوسية من ابنه مرهف وهو بمصر مع الناصر
صلاح الدين (صفحة ٢١٤) وذلك بشعر منه :

أريد عصا من آبنوس تقلني فان الثمانين استعادت قوى وجلي

ومما هو جدير بالذكر أن أغلب مؤلفاته يغلب عليها الطابع الذاتي ، فضلا
عن أنه يضمنها شعره الذي كان حفيا به - وفي العصا وحده تسعون بيتا زائدا
على شعر ديوانه - فهي غنية بما عرض له في حياته من أحداث ، وربما الاستثناء
الوحيد من هذه القاعدة العامة - في حدود ما ظهر من نتاجه حتى الآن - هو
كتاب البديع ، فان الموضوعية هي ميزته الأولى ولم تكن مع ذلك مما رفع من
شأنه ، فقد أقر بأنه لم يدع ابتداء شيء فيه وحسبه فضيلة الاباع .

والدليل على ذلك أنه طالما عاد إليها منقحا ليدخل على عباراتها من التحسينات البيانية ما يكشف عن رغبته في أن تكون « شيئا » عند الناس . والمدهش أن الذين اطلعوا عليها وقراها هو لهم كانوا يشيدون بها اشادة معجبيه بالبطولات التي سجلها في أيام فتائه وعنفوانه .

غير أنه كان ينصرف عن الجميع الى متابعة اخبار الوزير الشاب الذي ملك مصر ، وراح هو بشعره يشجعه على أن يطارد قوات أموري ويصل الى فرنجة الشام ، ثم جرؤ في عام ١١٧١/٥٦٧ على ازالة الخلافة الفاطمية واعادة مصر الى حظيرة الخليفة العباسي في بغداد ، وكان مما كتبه :

تهن يا اطول الملوك يدا
في بسط عدل وسطوة وندي
اجرا وذكرا من ذلك الشكر في الد
نيا وفي ذلك الجنان غدا
لا تستقل الذي صنعت فقد
قمت بفرض الجهاد مجتهدا
وجست ارض العدا وافنيت من
أبطالهم ما يجاوز العددا
وما راينا غزا الفرنج من ال
ملوك في عقر دارهم أحدا
فسر الى الشام فالملائكة ال
أبرار تلقاك ملتقى حمدا

فهو فقير اليك يأمل أن

تصلح بالعدل منه ما فسد

والله يعطيك فيه عاقبة الذ

صر كما في كتابه وعدا

فما جباك الوري وألهمك ال

عدل وأعطاك ما ملكت سدى

(١٣)

سلطان وصاحب ضيعة

في شوال من سنة ١١٧٤/٥٦٩ مات نورالدين محمود فخلفه ابنه الملك الصالح اسماعيل (١) ، وكان أسامة اذ ذاك قد بذل قصاره عند صلاح الدين الأيوبي ليدعوه اليه في مصر . ولكن من حوله كأخيه شمس الدولة وصديقه الخصى الرومى بهاء الدين قراقوش حذروه من غضب المصريين عليه - أفلم يتأمر عليهم يوما واتهم بقتل أحد خلفائهم - فقنع بمصاحبة ابنه العضد أبى الفوارس مرهف ، وترك الأب الذى قارب الثمانين فى أسوأ حال حتى تمنى الموت فقال :

لا تحسبن على البقاء معمرًا فالموت أيسر ما يؤول اليه
واذا دعوت بطول عمر لأمريء فاعلم بأنك قد دعوت عليه

ولحسن حظه - وقد بدا أنه مجدود برغم كل شيء - وقع الصدام فى دمشق بين المتنافسين على امتلاك الأمر من الملك الصالح اسماعيل الذى كان فى الحادية عشرة ، حتى اضطر أحدهم - وكان اسمه شمس الدين بن المقدم - الى أن يسترضى بالمال الافرنج ، فاضطر صلاح الدين بعد القضاء على فتنة عمارة اليمنى - الشاعر الذى يعرفه أسامة وأراد ارجاع الفاطمية فى عمليات أعانه عليها الفرنج والحشاشية - الى الزحف على الشام ، وتمكن

(١) ابن الأثير ٩ : ١٢٤ ، أبو الفداء ٣ : ٥٥ .

من الاستيلاء على دمشق في الحادى عشر من جمادى الأول عام ١١٧٥/٥٧٠ ثم أعقبها بحمص فحماه فشيذر .

وكان على أسامة أن ينتظر الكلمة الفاصلة ، فها هو ذا صلاح الدين الأيوبي يحاصر حلب ، فيستنجد أميرها بريموند الثالث صاحب طرابلس وبسيف الدين غازى صاحب الموصل وبالحشاشين الذين كاد أحد أفرادهم أن يفتك به (١) .

وفى هذه الأثناء وخلال فترات الراحة بين المعارك ، كان مرهف يكلم الأيوبي فى شأن أبيه ، وتمكن فى نهاية الأمر من أن يحصل منه على دار وضيعة قرب المعرة .

وفى اللحظة التى كان ينادى فيها بصلاح الدين الأيوبي سلطانا (٢) على الشام - بتفويض من الخليفة العباسى - كان أسامة يتوج أميرا على ضيعته وينظم غلمانه وعماله فيها . والتقى الصديقان القديمان فى دمشق ولا يزال الحصار مضروبا على حلب ، وقوات السلطان تستولى على منبج واعزاز ، ولم يكن بد من أن يشيد العجوز بهذه « المنة » ويذكر ذلك « الفضل » الذى طوقه به سلطان الاسلام والمسلمين .

ولقد سجل هذه الآونة فى مذكراته بعد ذلك بعشر سنوات ، وأقر بعد طول تردد أن الحظ ابتسم له بعد أن قطع أسبابه من أسباب الأمراء والسلاطين ، وما كان له الا أن يعترف !

أعجزنى وهن السنين عن خدمة السلاطين ، فهجرت مغشى أبوابهم وقطعت أسبابى من أسبابهم ، واستقلت من خدمتهم ،

(١) راجع هنا الحاشية رقم ٥ وابن الأثير ٩ : ١٣٠ وتاريخ أبى الفداء ٣ : ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) يحسن مراجعة Kramers: art. Sultan, Enc. of Islam. ومفرج الكروب لابن واصل ٢ : ١٠٢ وما بعدها .

ورددت عليهم ماخولوني من نعمهم . لعلمي أن ضعف الهرم لا يقوى على تكاليف الخدم . وأن سوق الشيخ الكبير لا ينفق على الأمير . ولزمت دارى وجعلت الخمول شعارى ، ورضيت نفسى بالانفراد فى القرية ومفارقة الأوطان والتربة الى أن تسكن نفارتها عن مرارتها ، وصبرت صبر الأسير على قبه والظمان ذى القلة عن ورده .

فنادانى اليه مكاتبة مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين ، جامع كلمة الايمان قانع عبدة الصلبان ، رافع علم العدل والاحسان ، محيى دولة أمير المؤمنين أبو المظفر يوسف بن أيوب . جمل الله الاسلام والمسلمين بطول بقاءه وأيدهم بماضى سيوفه وآرائه ، وأضفى عليهم وارف ظله كما أصفى لهم من الأكداد موارد فضله . وأنفذ فى البسيطة على أوامره ونواهيته ، وحكم صوارمه فى أعناق أعاديته . برحمة نقتب عنى فى البلاد ودونى الحزن والسهل ، بمضيعة من الأرض لا مال لدى ولا أهل .

فاستنقذنى من أنياب النوائب برأيه الجميل ، وحملنى الى بابه العالى بانعامه الفامر الجزيل . وجبر ماهاضه الزمان منى ، ونفق على كرمه ماكسد على من سواه من علو سنى . فغمرنى بغرائب الرغائب ، وأهنأتنى من أنعامه أهنى المواهب ، حتى رعى لى بفائض الكرم ، فأسلفت سواه من الخدم . فهو يعتد لى بذلك ويرعاه ، رعاية من كانه شاهده وراه . فعطاياه تطرقنى وأنا راقد ، وتسرى الى وأنا محتسب قاعد . فأنام من انعامه كل يوم فى مزيد ، واکرام كتركمة الأهل وأنا أقل العبيد .

أمنى جميل رأيه حادث الحاداث ، وأخلف لى انعامه ما سلبه الزمان بالنكبات المجحفات . وأفاض على من نوافل فضله بعد تأدية فرضه وسنته ما يعجز الاعناق عن حمل أسر منته . ولم يبق لى جوده أملا أرجو نيله أضى زمانى بالدعاء به نهاره وليله .

ويحدثنا عماد الدين الأصبهاني في الأديب الكاتب المؤرخ
- الذي عمل في بلاط نور الدين فلما مات لزم صلاح الدين - أن
السلطان كان يستشيريه فيما يلم به ويستنير برأيه في غيابه ،
وإذا غاب عنه في غزواته كاتبه وأعلمه بوقعاته ، وكان يطيل النظر
في ديوانه - وهو به مشغوف وخاطره على تأمله موقوف - لا سيما
طائفة لو عاش الطائيان لأقرا بفضلها (١) !

ويعترف العماد الأصبهاني بأنه طالما سمع بأسامة حتى كان
يتمنى أبدا لقياه ويشيم على البعد حياه الى أن لقيه في صفر سنة
أحدى وسبعين وخمسائة (١١٧٦) وأنشده لنفسه - بعد أن
سأله عن سنه - البيتين اللذين سارا له في قلع خرسة :

وصاحب لا أمل الدهر صحبته

يشقى لنفعى ويسعى سعى مجتهد

لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا

لناظري افترقنا فرقة الأبد

وأكد الظن أنه هو نفسه الذي عرفه بالقاضي الفاضل ، وزير
صلاح الدين في مصر - وكان هذا قد توسط للعماد في أن يسند
اليه السلطان ديوان الإنشاء بدمشق - فارتبط الثلاثة برباط لم
يضعف منه فارق السن . وقوت تلك العلاقة ما بين أسامة
وصلاح الدين على رغم غيابه المتكرر عن دمشق ، لأنه كان يوزع
أيامه في سوريا ومصر بين مناهضة الفرنجة ومطاردة الثوار
واستنهاض الهمم وترتيب المؤن والامداد .

(١) معجم الأدباء ٥ : ١٩٣ تاريخ ابن عساكر ٢ : ٣٢٧ ومع ذلك فإن
أسامة قال فيه :

هو من عرفت فلو عصاه نهاره
لرماه نقع جيوشه بالغيث
ويجب أن نذكر أن ديوان أسامة الذي كان في حوزة صلاح الدين رآه ابن
خلكان في جزاين وبخطه ونقل منه - وفيات الأعيان ١ : ١٧٥ .

ويحكى العماد أنه وأسامة اجتمعا عند الملك الناصر صلاح
يوسف بن أيوب بدمشق (١) وكان يلعب بالشطرنج فقال أسامة
للعمام :

— ألا أنشدك البيتين اللذين قلتكما في الشطرنج ؟

فقال :

— هات ...

فأنشد :

انظر الى لاعب الشطرنج يجمعها
مغالبا ثم بعد الجمع يرميها

كالمرء يكدرح للدنيا ويجمعها
حتى اذا مات خلا لها وما فيها

كما يحكى أنه سأل يوما أن ينجز له مطلوبا عند السلطان ،
فلما أبطل عليه كتب اليه يستحثه :

عماد الدين مولانا جوا	مواهبه كمنهل السحاب
يحكم في مكارمه الأمانى	ولو كلفتاه رد الشباب
وعذرک في قضا شغلى قضاء	يصرفه فما عذر الجواب

وما من شك في أن أسامة الذى قنع في نهاية المطاف بضيعة
ودار المعرة ودار أخرى في دمشق لم يكن يجد حرجا أن يثقل على
صلاح الدين بمطالبه وكان هذا يوجب حاجته مقدرًا له تاريخه الطويل
في المعارك من ناحية ومنفعًا بأرائه في « الوضع » السياسى للبلاد
من ناحية أخرى . والحقيقة أن صلاح الدين كان يعترف بأن
أسامة من أول الذين نبهوه الى أقصر طريق للقضاء على الافرنج .
وقد رف قيمة أن يكون هو على رأس مصر ، ثم يدعو الى الاتحاد

(١) معجم الادباء : ٥ : ٢٠٤ .

الذى تذوب فيه النعرات ولا يبقى الا الشعور بحب الارض التى
درج العرب عليها بالاسلام .

وعندما جلس يكتب كتابا فى أخبار اهله أعلن أنه يريد أن ينتفع
به السلطان وتلقى صلاح الدين هذه اللفتة منه بالتقدير . فوجد
هذا أن كل ما بذله على مدى السنوات الطوال لم يضع هباء ، وأن
المرء فى واقع الأمر مجموعة أعمال فقط .

واذا مادعت تلك الأعمال بالفكرة النبيلة وشفعت بالتقوى
وخير المسلمين ، فلا خوف على أحد فى أرض النبوة والرسالات .
وانه ليؤمن بالغد ، ما كان له هذا السلطان ، وما كانت الأيام تحمل
له من الطوالع السعد ما يمكنه من أعدائه وشائتيه .

بين الشعر والسياسة

كان لبیت أسامة في المعرة مسجد يجلس فيه اليه - ما كان السلطان صلاح الدين والعماد الأصبهاني بعيدين عن دمشق - طلاب علمه وأدبه ، وكثيرا ما عرض عليه هؤلاء أن يتخذ لنفسه حلقة تدريس في الجامع الأموي ، وعلى هذا شجعه ابن عساكر . وقد اعتذر هو بتقدم سنه ، وبأن هناك من أولى منه بالتدريس وبأن التصدي للعلم مهنة لم يخلق لها ، فضلا عن أنه مشغول بأخبار المعارك التي يخوضها السلطان في الجبهتين الداخلية والسياسية .

وعلى الرغم من أنه كان يعتد نفسه معفيا من العكوف على التلقين والإرشاد فإنه لم يعدم طلاقة اللسان وحلاوة البيان ، وظل أقدر من الكثيرين على استلاب الأفئدة واستهواء النفوس . ولقد لفت الى هذا السمعاني في تاريخه ، وتكفل باشاعة مادته العماد حتى انه اختفى بكل شعره الذي أورده بنتف أخباره ، وكثيرا ما أثاره على أن يعيد انشاءه والتعليق عليه .

وربما كانا اذا اجتمعا بدءا حوارهما في السياسة - فان الموقف العام صعب ودقيق - وذهب أسامة بصوته يبحث عن اجابات الأسئلة التي تريد أن تحدد طبيعة المعركة ، غير أن العماد يستدرجه برفق الى الأدب ولفته حتى لقد اضطره الى أن يسأله ذات يوم :

— أما يمنع من أن أسأل عن أقوام المسلمين يا أبا عبد الله ؟
وعندما أجاب بقوله :

— بلى والله ..

قال :

— خبرت الحياة حتى يخيّل الى أنى لابد أن أسمع السلطان
صوتي دائما ، فما يعنني من الكلام ؟

ولم تكن هناك اجابة عن تساؤله ، وانما كانت الحوادث اكبر
من أن نتوقف عند مجرد ابداء الرأي وازجاء النصح . ان الظروف
هى التى تملئ على السلطان ان يتحرك ، فهو قد ينتصر فى سنجار
وآمد وتل خالد عام ١١٨٢/٥٧٨ ولكن هذا لا يعنى انه تخلص من
مشكلات الأمراء المتصارعين . بل انه عقب استيلائه على حلب
نفسها صرح بأن مواجهة الافرنج عملية لا تزال فى علم الغيب ، لأن
هناك مشكلات الموصل وبلاد الأرمن (١) .

ولقد ظن أسامة عندما أقسم صلاح الدين فى العام نفسه على
أنه لن يعود من الشام الى مصر حتى يفرغ من كل شيء أن المعركة
الفاصلة اقترُب ميعادها الا أن أمله سرعان ما خاب وهو يرى
الصعوبات تعترضه وتجبره على الريث والتلكؤ .

وهكذا كان عليه أن يصبر ولم ينقطع عن العمل فقد أُملى لباب
الألباب عام ١١٨٣/٥٧٩ فى واحد وعشرين كراسة وأهداه لابنه
مرهف وأن يقول فيما بينه وبين نفسه انى لأنحى بالملامة على نفسى
إذا عن لى أن اتعجل السلطان فيما لم يقدر الله أن يكون . لقد
فعل ما يوجبه العقل ليحى سنة الخلفاء الراشدين وقيم أولا
عمود الدولة والدين ، على أنه لا تزال الأمة من سيوفه فى حمى
متيع ومن أنعامه فى ربيع مريع . وإذا كنت لم ادخر شيئا يحتاج

(١) ابن الأثير ٩ : ١٥٤ ، ١٥٥ ، وابو الفداء ٣ : ٦٤ وما بعدها .

إليه ، فاني أرجو أن يبقى الله على لأشهد ما يقدمه الذين يحتاج
هو اليهم ليكيف بسطه يد المعتدى الآثم ويكشف عن البلاد ظلم
المظالم .

أكان هذا ياسا ؟

انه لم يكن يدري ، ولكنه حين زاره العماد في سنة ١١٨٥/٥٨١
بعد غياب أشعره بالملل والسقم وقال له :

— سلطان المسلمين يركب المهالك حتى انى أخشى أن يموت ..
قال :

— الحرب لا تقتل ولكن يقتل القعود والنفس تسترجع فيه
ما قالت منذ أعوام :

مع الثمانين عاث الدهر في جلدي
وساءنى ضعف رجلى واضطراب يدي

إذا كتبت فخطى جد مضطرب
كخط مرتعش الكفين مرتعد

فأعجب لضعف يدي عن حملها قلما
من بعد حطم القنا في لبه الأسد

وان مشيت وفي كفى العصا ثقلت
رجلى كانى أخوض الوحل في الجلاء

فقل لمن يتمنى طول مدته
هذى عواقب طول العمر والمدد

قال العماد :

— يعجبني الشعر يا أبا المظفر ولكن كيف لا تقتل الحرب ؟
فأجاب :

— ربما قتلتك ضحكة أو أكلة أو نومة ، فلماذا لا تذكر هذا
يا أبا عبد الله ؟ لا والله .. فما أريد أن تخشى على السلطان وثقول
أن الموت يقدمه ركوب المخاطر أو يؤخره شدة الحذر ، ففي بقائي
أوضح معتبر . فكم لقيت من الأهوال وتقحمت المخاوف والأخطار
ولاقيت الفرسان وقتلت الأسود وضربت بالسيوف وطعنت
بالرمح وجرحت بالسهم والجروح وأنا من الأجل في حصن حصين
الى أن بلغت تمام التسعين ، فرأيت الصحة والبقاء كما قال
صلى الله عليه وسلم « كفى بالصحة داء » فأعقبت النجاة من تلك
الأهوال ماهو أصعب من القتل والقتال ، وكان الهلاك في كفة
الجيش أسهل من تكاليف العيش .

وصمت أسامة وعيناه تدمعان ، فقال العماد :

— هون عليك أيها الأمير الجليل .

فقال أسامة :

— أتقول انى أمير ؟ والله لقد استرجعت منه الأيام بطول الحياة
كل محبوب للذات ، وشاب عنده كدرب النكد صفو العيش
الرغد .

قال العماد :

— أذلك والسلطان حى وأنا معك يا أبا المظفر ؟
فقال :

— هيهات يا مولاي فقد صرت كجواد العلاف لا الجواد
المتلاف ، ولصقت من الضعف بالأرض ودخل منى الكبير
بعضى فى بعض ، حتى أنكرت نفسى وتحسرت على أمسى
وقلت فى وصف حالى :

لما بلغت من الحياة الى مدى
قد كنت أهواه تمنيت الردى

وأنا القائل بمصر أذم من العيش الراحة والدعة ، وما كان
أعجل تقضيه وأسرعه :

انظر الى صرف دهرى كيف عودنى
بعبد المشيب سوى عاداتى الأول

قال العماد :

— والله لا أدري أماخوذ أنا بأن تقنت وقد عهدتك المقدام العنيد
تفتن في فنون الشعر والنثر مافيه زاد المستزيد ؟

فقال أسامة :

— كل مافى الأمر يا أبا عبد الله أنى ظننت أن الزمان لا يبلى
جديده ولا يهوى شديده ، ومع ذلك فقد استخرت الله في
كتاب جديد شرعت فيه على نحو قريب مما فعلت في كتاب
المنازل والديار ، لكن الدافع فيه ليس تلك الزلازل التى
أفنت معشرى فأقفرت شيزر منهم حتى اليوم

فتساءل العماد :

— فما هو ؟

فأجاب :

— فى حياتى أنا كل ما أريد وفيها تجد الأمثلة يا أبا عبد الله ،
ولهذا ازمع تسمية الكتاب بالاعتبار ، ولن أقصره على
وصف أيامى فى بقعة واحدة من الأرض أو فى صقع من
الأصقاع وهكذا فعلت فى المنازل والديار وأهصا أقامتى
فى كيفا ، وإنما أمدته على أيامى كلها وقد توغلت ذروة
التسعين ليكون أروع وأجمع :

قال العماد :

— ساكون اول قارىء له يا ابا المظفر ان شاء الله ، ولكنك
مادمت تخوض فى نحو ما تخوض فيه فهلا انشدتنا فى
الشيب معنى مبتكرا ؟

قال أسامة :

لو كان صد معاتبا ومفاضيا
أرضيته وتركت خدى شائبا
لكن رأى تلك النضارة قد ذوت
لما غدا ماء الشيبة ناضبا
ورأى النهى بعد الفواية صاحبا
فتنى العنان يرفع غيرى صاحبا
وأبيه ما ظلم المشيب وانه
أملى ، فقلت عساه عنى راغبا
أنا كالدجى لما تنهى عمره
نشرت له أيدى الصباح ذوابا

وكان هذا ايدانا بالخلوص الى الشعر ، فراحا يهيمان مع
الخيال متذاكرين اقوال المبدعين من الشعراء . وعندما تناشدا
بيتا للوزير المغربى فى وصف خفقان القلب وتشبيهه بظل اللواء
الذى تخترقه الرياح ، قال أسامة وكأنه يريد التنبيه على فضله :

— لقد شبهت القلب الخافق وبالغت فى تشبيهه وأريت على
قول المغربى فى قولى من أبيات هى :

عروض المهامة والقياق الفيج	اجبارنا كيف اللقاء ودونكم
فكانما انسانها مجروح	ابكيتم عيني دما لفراقكم
لهب الضرام تعاورته الريح	وكان قلبى حين يخطر ذكركم

فقال العماد :

— صدقت فإن المغربى أنشد :

كأنى قلبى اذا عن أوكاركم ظل اللواء عليه الريح تخترق نقصد
تشبيبه خفقان القلب وأنت شبهت القلب الواجب باللهيب
وخفقانه باضطرابه عند اضطرامه لتعاور الريح ، فقد أريبت عليه .

ثم تذاكرا ماقاله من شعر عندما بلغ الأربعين ، فعلق العماد
يقوله انه وان اعتمد فيه ابن الرومى وأبا فراس ، فانه كان أبلغ
منهما فى المعنى ثم استنشدته الكثير من أشعاره القديمة وهو يعمد
إلى صرف همته عن الأسى وثقل السنين وعبء القتال ، الا انه
قال له وهو يودعه :

— لا تنسى أن تبلغ سلطان المسلمين انى أدعو له بالتوفيق
وسأظل أتحرى خطاه حتى يكتب له النصر باذن الله .

الشيخ المنكوب

عندما اشتدت عليه وطأة الاحساس بالفراغ وجد أن لا مفر من القعود للتدريس في المدرسة الحنفية بدمشق ، وكان يعنى في محاضراته بالبديع وبخاصة ما يرد في شعر مسلم بن الوليد والطائي وابن المعتز . وقد حضر درسه مرة أو مرتين كل من القاضي الفاضل والعماد الاصبهاني ، وأكثر من مرة ابنه الحبيب مرهف جليس السلطان ونديمه وكلمته هو عنده ووسيلته اليه .

انه لا يزال يتدفق حياة برغم شكائته التي لا تنتهى من « انهيار » قواه ، وعندما يردد بيته الذى أصبح علما عليه :

ولست أرضى بلوغ المجد في رفه

ولا العلا دون حطم البيض والأسل

ثم يعقب بقوله انه خدع بوعد المطامع حتى وجد كل شيء كالسراب اللامع ، كان العماد أو حتى أى سامع له يقول :

— الشكر لله على أن مازلنا نجلس اليك ..

الا أنه يرفض الاقرار بذلك ، وترجع به ذاكرته القهقرى فيجد الفارق كبيرا بين ماكان أمس وما هو اليوم ، فينهض بقامته المديدة ويدفع عمامته عن رأس أصلع ويقول :

١ - هذا هو أجد المظفر مجد الدين مؤيد الدولة أسامة بن مرشد
لم يدر إلا اليوم أن داء الكبر عام يعدى كل من أغفله
الحمام .

ثم ينطلق يتحدث دون انقطاع ، وفي خلال حديثه يقحم الكلام
عن السام والقتل بين الحينة والحينة . بينما يوجه النقد اللاذع
الى حلب التي لا تريد أن تسلم للسلطان ، وإلى الحشاشية الذين
أساءوا للإسماعيلية أو للأمامية وفتوا في عضد المسلمين . وفي
الحق كان ذلك الشيخ الذي يرى أن الأمراض .. اصطلحت عليه
يلقى القول في عصبية حتى ليظن الظانون أنه يخبط ويخط ،
وما درى أحد أنه كان يستبطن صنيع السلطان بينما نهايته هو
تقرب .

ولما حمل إليه ابنه نبأ استسلام حلب سنة ٥٧٩/١١٨٣ قام
إليه فعانقه وراح يقول :

- لم تبعد إلا الموصل ، لكن هذه أمرها هين .. قل لى
ياعضد الدين كم يبقى على لقاء السلطان بالكفار الملعين ؟ انهم
لن ينتصروا عليه كما انتصروا في عسقلان سنة اثنتين وسبعين
وخمسائة .. أنا لا أنسى هذا التاريخ ، فقد كنت في اقطاعي
بالمعرة أراجع لباب الألباب .. لا شك أنك قرأته وأطلعت السلطان
عليه ، ان القاضي الفاضل مد الله في عمره ذكر لى أنه قرأ كتاب
العصا عليه فسأله عن أخبار النساء الذى تردد فيه ذكره ..

ويلتقط أنفاسه أو يمسح على لحيته البيضاء الذى يحرض
على تشذيبها ، ثم يستطرد :

- قل لى يا أبا الفوارس متى أذهب للقاء السلطان ؟ اننى
أريد أن أقول له يقذفها بالمجائيق ويقطع عنها المبرة .. ألا تدري
أن أبراجها تلتقى انتظاما لقرب مسافة بعضها من بعض وقلعها

قد رحل بناؤها رضا وينتظمها سور عتيق فما تستسلم هذه
الا بالمجانيق ؟

ويعدل الى ديوانه الذى كان يضيف اليه فينشد له ما يعن
له منه ، ثم يتذكر أدواءه ويتساءل :

— كم عمرك يا أبا الفوارس ؟ أنت أكبر من السلطان بثلاثة عشر
عاما .. أنا أعرف .. أظنك قد قاربت الستين ثم لا تشكو الما ،
أفلا ترى أن صحتي لا يسعفها الا وجودك معي ومخالطة
الأصحاب لى ؟ اننى أضيق بهذه الحفنة من التلاميذ الذين فقدوا
القدرة على التفكير .. اننى أسجل فى الاعتبار أن خير أمثلة
حسن التدبر بالعقل ، ولعله يثير دهشتك أنى أحاول منح
السلطان ذلك دون أن تخدعنى الفتنة ، فانا دائما أقول التواضع
يا أبا المظفر التواضع ..

وإذا كان على ابنه أن يتدبر هذا القول الذى يبدو مفككا
متخاذلا ، فما ذلك الا لأنه يبنى أن ينبه الى ما قد يزلق به
لسانه بعد ما خرج أحد طلابه من الشافعية يقول :

— والله ان مولانا الشيخ أمامى لكنه يدارى عن منصبه ..

ثم أيده بعض زعم أنه اعتاد أن يرفد الشيعة ويخلصهم من
أدران الحشاشين الذين ملأوا الشام فسادا .. ولعله اطمأن
الى أن أباه لم يفقد بعد القدرة على املاك ناصية أمره ، وأرجع
انطلاقه فى الكلام الى ما طبع عليه من حيوية وحماسة لا تزالان
تملكان عليه بيانه ، غير أنه قال له :

— أريدك يا مولاى أن تكون زينة القوم ، وأحذر الوشاة منهم
ينقلون عنك الى السلطان ما يفضبه عليك وأنت صنيعته ..

على أن أسامة لم يفزع لهذه الإيماءة التى كانت بمثابة انذار له ،
فالفكرة التى جعلها نبراسا لحياته كانت واضحة وضوح الشمس .

فقد صح عزمه على أن بشر بالخطوة التالية التي لا بد للسلطان من أن يقطعها ، وهو إذا كان قد فقد القدرة على أن يتحرك بالسيف فلا يزال قادرا على الكلام في سبيل توحيد القوى الإسلامية ضد الفرنج .

وفجأة دقت ساعة الخطر المؤذنة بزوال ممالك الاقرنج ، فقد خضع صاحب الموصل للسلطان ، وبدأ أن الحاق العراق الأعلى بسوريا ومصر هيا للفاصبين سحنا من الصعب التخلص منه الا بالموت . . كم أتت سعادة الشيخ عندما بلغه أنه قد آن الاوان لحرب الخلاص المقدسة ، وأما هذه الأقوام التي اتضوت تحت راية صلاح الدين - وفيها العرب والترك والمغاربة والفرنج - فلم تكن الا القوة التي يبطش بها والتي تقدر فعلا على البطش ما كان يوجهها واحد . . كالناصر الأيوبي .

وفي هذه الفترة بالذات تولى الكثيرون عن تعصبهم الإقليمي ، ولو كان لأسامة شيزر لنزل عنها ، وانه ليتم تصوير ذاته في مذكراته بعبارات الإطراء . . التي تنم عن رضائه الكامل بالرجل الذي أرجع سنة الخلفاء الراشدين ، حتى أنه لو طلب منه - بعد اليوم - أن يشهد المعركة القادمة لفعل .

لكن . .

وفي قمة هذه السعادة ، وبينما الأمة كلها تحشد قواها ، يبلغه النبا المفجع . .

ان السلطان غاضب عليه ويمتنع عنه لا يريد أن يلقاه ، بل طلب الى ابنه أن يبلغه بضرورة التزام ضيعته والا صادره فيها . ويهرع اليه العماد مطيبا خاطره ، وكذلك يفعل القاضي الفاضل ، ولكن أحدا لا يقدم له سببا لغضبة السلطان . ولقد تولته الدهشة في أول الامر ، ثم لما راح يفتش في أعماقه وجد كثيرا من أسباب

الحقد والكيد ، واذا يقول له ابنه اقبل خروجه مع السلطان الى طبرية :

- أما تركت فينا ايام مصر شيئاً يا مولاي ؟

ويجيبه بقنوط :

- بلى يا ولدى ..

فان السلطان اذن يكره فيه نزعة فاطمية ، وكان ما اذاعه تلميذه قد وصل اليه فاذاه ، لكنه لم يختار اللحظة المناسبة للنكبة . ولست اريد أن أعتب فان ما تمنيت أقرب منه الموت ، لالا أنها ارادة الله أخرتني الى أجلى الموقت لى فماذا أفعل ؟

ويظل سؤاله بلا جواب مدة حتى يأتيه نبأ استيلاء السلطان على طبرية ثم تحوله الى حطين بجوارها حيث قضى في سنة ١١٨٧/٥٨٣ على نحو عشرين ألف أفرنجي وأسر ملك اورشليم وصاحب الكرك الذي قتله بيده لقسم أخذه على نفسه (١) ، هناك يبعث بقصيدة له يقول فيها بعد استهلال رائع :

يا ناصر الاسلام حين تخاذلت

عنه الملوك ومظهر الايمان

بك قد أعز الله حزب جنوده

وأذل حزب الكفر والظفيان

لما رأيت الناس قد أغواهم الـ

شيطان بالالحاد والعصيان

جردت سيفك في العدا لا رغبة

في الملك بل في طاعة الرحمان

(١) ابن الاثير ٩ : ١٧٥ وما بعدها .

لكنه لا يظهر بشيء ، وكأنه كان يجهل اذ ذاك أن السلطان المنتشى بكأس الانتصار كان يسير في طريق مفتوحة الى النهاية التي يرجوها هو .. وبدلاً من أن يفرح امتلاً قلبه بالأسي ، وبدا كأنه يرى وجه صلاح الدين مقنعا بالزراية والاحتقار ، وآه من كبرياء الملوك .. لقد عرف أن هناك ما هو أقسى من الموت وبعد الأهل مفارقة الأصحاب ، عرف أن الصمت المنطوى على الإهمال اقتل للنفوس من طعنة الخنجر أو ضربة السيف .

ومع ذلك لم يشأ أن يرفع راية التسليم - وهو المحارب القديم - الى نهاية مؤسفة . فانه اذا كان قد قضى عليه وكان الحكم قاسياً واحتماله شديداً ، فكم أقر بفضلته وتغنى بشعره وذاكره أخباره ، وهذا وحده كفيل بارجاع ماسلف من أيامه معه .

واذن فليمارس تجربة الانتصار ثانية .. ليصبر .. فانه لا يزال يستشعر الشبح يملأ جوانب نفسه ، وتمكن من أن ينهض على قدميه وسط العاصفة ويتماسك على مدى أيام أزمتته بينا الجيوش الأيوبية الظافرة تزحف نحو اورشليم لتقضى على آخر معاقل الفاصيين ..

غدا ينتهى كل شيء ، وما يرضى السلطان أن يقصين عنه الى الأبد ، والا فهل من المستطاع أن تكون أسبابه قد تقطعت منه ؟ ولم يمر بخاطره قط أنه كتب عليه أن يخسر هذه الجولة ، وامن في الضلال فخيّل اليه أن صلاح الدين سينفق أيام العيد - وقد كان الشهر رمضان - في دمشق فشرع يكتب له هذا النوع من الشعر الذي يحبه . وقبل أن يكمل بيتاً واحداً أصيب باغماءة نقل بعدها الى فراشه ، ثم لم يبرحه أبداً ، ذلك لانه أسلم روحه بلا أدنى مقاومة حتى كأنه قد تعب من طول ما قاوم وأصر وعارك .

ولو كان تأخر أياما .. معدودة فقط لسمع أن حلمه الكبير
تحقق ، فقد أرجع صلاح الدين القدس للعرب بعد احتلال استمر
نحو ثمان وثمانين سنة ، ولما بلغه نبأ وفاته - وكان في ٢٣ من
رمضان سنة ١١٨٨/٥٨٤ - دمعت عيناه وأقبل على ابنه يعزیه
ثم تقبل العزاء فيه من وجوه القوم وقال :

- مات اليوم شاعر الأمة وفارسها ..

وأمر بدفنه في جبل قاسيون ، وشيعه مع ابنه العماد
الاصبھانی ، ودخل قبره - وهو جانب نهر یزید الشمالی - وقرأ
عنده شیئا من القرآن وفي الطريق الى بيته كانت دموع الحزن
عليه تختلط بدمع الفبطة بالنصر المبين .

فهرس

صفحة		صفحة	
٩٩	(٢) ضد الأتابك أبدا	٣	مقدمة
١٠٥	(٣) الجاحدون		الباب الأول
١١٢	(٤) هذه هي القاهرة	١١	في شيزر
١١٩	(٥) النديم السياسى	١٢	(١) الزحف الصليبي
١٢٦	(٦) كرسى الوزارة	١٩	(٢) ممارسة الحياة
١٣٣	(٧) صفحات من مذكرات	٢٨	(٣) في مهب الريح
١٤٠	(٨) صراع في القاهرة	٣٣	(٤) الصياد المقاتل
١٤٦	(٩) عام ١١٥٤ الرهيب	٣٩	(٥) مع فارس صليبي
١٥٤	(١٠) أيام نور الدين	٤٨	(٦) قتال في سروج
١٦١	(١١) في مفترق الطرق	٥٤	(٧) عام ١٥١٧ / ١١٢٣
١٦٦	(١٢) السجين	٦٢	(٨) بداية الجفوة
١٧٣	(١٣) سلطان وصاحب ضيعة	٧٠	(٩) نهاية صراع
١٧٩	(١٤) بين الشعر والسياسة	٧٥	(١٠) الخروج
١٨٦	(١٥) الشيخ المنكوب	٨٥	(١١) نهاية مرحلة
١٩٣	الفهرس	٩٣	الباب الثانى
		٩٤	مواطن بلا وطن
			(١) صراع في دمشق

ملحوظة :

كل التفصيلات الواردة هنا مع المواقف الدقيقة - وبعضها على هيئة حوار - ثابت في كتاب الاعتبار الذى ضمنه خبراته وصب فيه تجاربه مضيئا الى الوقائع التاريخية التى دعمت برصد مصادرها كثيرا من الحياة . وليس شك في ان ذلك يضىء على تلك السيرة - برغم ايجازها - حقيقة اذا كان الفن لحمتها فان العلم سداها .

صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب	المؤلف
١ - محمد عبده	عباس المقاد
٢ - المتمد بن عباد	على أدهم
٣ - جابر بن حيان	د . زكي نجيب محمود
٤ - عبد الرحمن بن خلدون	د . على عبد الواحد وافي
٥ - ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦ - معاوية	ابراهيم الأبياري
٧ - سيد درويش	د . محمد أحمد الحفنى
٨ - عبد القاهر الجرجاني	د . أحمد بدوى
٩ - عبد الله النديم	د . على الحديدى
١٠ - عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الرئيس
١١ - مالك	أمين الخولى
١٢ - القلقشندى	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ - الطبرى	د . أحمد محمد الحوفى
١٤ - الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ - ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمى
١٦ - المختار الثقفى	د . على حسنى الخربوطلى
١٧ - الوليد بن عبد الملك	د . سيدة اسماعيل الكاشف
١٨ - الأصمعى	د . أحمد كمال زكى
١٩ - زكريا أحمد	صبرى أبو المجد
٢٠ - قاسم أمين	د . ماهر حسن فهمى
٢١ - شكيب أرسلان	أحمد الشرباصى
٢٢ - ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣ - أبو هريرة	محمد عجاج الخطيب

المؤلف

اسم الكتاب

- | | |
|---------------------------|-------------------------------|
| د . جمال الدين الرمادى | ٢٤ - عبد العزيز البشرى |
| محمد جابر الجنى | ٢٥ - الخنساء |
| د . احمد فؤاد الاهوانى | ٢٦ - الكندى |
| د . بدوى طبانه | ٢٧ - صاحب بن عباد |
| د . محمد عبد العزيز مرزوق | ٢٨ - الناصر بن قلاوون |
| انور الجندى | ٢٩ - احمد زكى |
| د . سيد حنفى حسين | ٣٠ - حسان بن ثابت |
| عقيد : محمد فرج | ٣١ - المثنى بن حارثة الشيبانى |
| عبد القادر احمد | ٣٢ - مظفر الدين كوكبورى |
| د . ابراهيم احمد العلوى | ٣٣ - رشيد رضا |
| د . محمود احمد الحنفى | ٣٤ - اسحاق الموصلى |
| د . زكريا ابراهيم | ٣٥ - ابو حيان التوحيدى |
| د . احمد كمال زكى | ٣٦ - ابن المعتز العباسى |
| د . ماهر حسن فهمى | ٣٧ - الزهاوى |
| د . عائشة عبد الرحمن | ٣٨ - ابو العلاء المعرى |
| د . حسين فوزى النجار | ٣٩ - احمد لطفى السيد |
| د . فوقيه حسين | ٤٠ - الجوينى امام الحرمين |
| د . سعيد عبد الفتاح عاشور | ٤١ - صلاح الدين الايوبى |
| محمد عبد الفنى حسن | ٤٢ - عبد الله فكرى |
| د . على حسنى الخربوطلى | ٤٣ - عبد الله بن الزبير |
| انور الجندى | ٤٤ - عبد العزيز جاويزى |
| عبد الرووف مخلوف | ٤٥ - ابن رثيق القيروانى |
| محمود خالد الهجرسى | ٤٦ - محمد بن عبد الملك الزيات |
| محمود فتييم | ٤٧ - حنفى ناصف |
| د . سيدة اسماعيل كاشف | ٤٨ - احمد بن طولون |
| احمد سعيد الدمرداش | ٤٩ - محمود حمدي الفلكى |
| محمد عبد الفنى حسن | ٥٠ - احمد فارس الشدياق |
| د . على حسنى الخربوطلى | ٥١ - المهدي العباسى |
| د . محمود رزق سليم | ٥٢ - الاشرف قانصوه القورى |

المؤلف	اسم الكتاب
د . حسين فوزى النجار	٥٣ - بفاعه الطهطاوى
د . محمود أحمد الحفنى	٥٤ - زرياب
د . حسن أحمد محمود	٥٥ - الكندى « المؤرخ »
د . زكريا ابراهيم	٥٦ - ابن حزم الأندلسى
د . بول غليونجى	٥٧ - ابن النفيس
د . سعيد عبد الفتاح عاشور	٥٨ - السيد أحمد البدوى
د . محمد مصطفى هدارة	٥٩ - المأمون
محمد عبد الفنى حسن	٦٠ - المقرئ
عبد الرحمن الراقى	٦١ - جمال الدين الأفتانى
د . أحمد كمال زكى	٦٢ - الجاحظ
د . أنور عبد العليم	٦٣ - ابن ماجد
د . ماهر حسن فهمى	٦٤ - محمد توفيق البكرى
د . على محمد الحديدي	٦٥ - محمود سامى البارودى
على عبد العظيم	٦٦ - ابن زيدون
د . عبد العزيز محمد الشناوى	٦٧ - عمر مكرم
د . ابراهيم أحمد العدوى	٦٨ - موسى بن نصير
د . عبد الحليم محمود	٦٩ - أبو الحسن الشاذلى
د . سيدة اسماعيل كاشف	٧٠ - عبد العزيز بن مروان
د . حسين فوزى النجار	٧١ - على مبارك
د . عبد الحليم محمود	٧٢ - أبو الحسن الشاذلى
د . على حسنى الخربوطلى	٧٣ - العزيز بالله الفاطمى
د . جمال الدين الشيال	٧٤ - أبو بكر الطرطوشى
د . حسين نصار	٧٥ - يونس بن حبيب
د . عباده كحيلة	٧٦ - صقر قریش
د . محمد جمال الفندى	٧٧ - البيرونى
د . أحمد كمال زكى	
د . امام ابراهيم أحمد	٧٨ - عبد الكريم الخطابى
د . جلال يحيى	٧٩ - أسامة بن منقذ